تَعْرِيفُ الْبَلاغَة

الْبَلاغَةُ لُغَةً (١):

أيْ أخي، الْبلاغةَ تعرفُ في اللُّغَةِ بِأَنَّهَا: الْوُصُولُ والانْتِهَاءُ.

فـقلْبُك - يا عـزيزي - هو مَـحطَّةُ الانطلاق. وقلْبُ السـامع هُوَ مَـحطَّةُ الْوَصُولِ.

وَمَتَىٰ وَصَلَ كَلامُكَ إِلَىٰ قرارة نَفْسِ السَّامعِ؛ ليُؤثِّر فيهَا تَأْثيرًا عظيمًا، كُنْتَ - حَقًّا - بَليغًا، وَإِنْ لَمْ تكُنْ كَذلكَ فَلَنْ توصفَ بالْبلاغة، وَلَوْ كُنْتَ أبلغ من سَحْبَانَ وَائل!!.

وَإِذَا بَلَغ كَلامُكَ إِلَىٰ قَلْبِ السَّامعِ، بحيثُ يُؤثِّرُ في قَلْبه، ويمتدُّ التَّأْثيرُ إلى بَعْضِ جوارحه: كَقُشَعْرِيرَةِ الجلْدِ، وحُصُولِ الدُّمُوعِ - فَأَنْتَ من أبلغ النَّاس (٢).

---

(١) قالَ الرَّاغبُ الأَصْفهانيُّ - رحمهُ اللهُ - كما في «الْمفردات» (ص٦٠): «الْبَلاغة تُقالُ علىٰ وجهين: **أحدهما** - أنْ يكونَ بذاته بليغًا، وذلك بأنْ يَجْمعَ ثلاثَةَ أوْصاف: صَوابًا في مَوْضُوع لُغَته، وطبْقًا للْمَعْنَى المقْصود، وصِدْقًا في نفسه. ومَتَىٰ اخْتَرَمَ وَصْفٌ منْ ذَلكَ؛ كَانَ نَاقصًا في الْبَلاغة.

والثَّاني - أنْ يكونَ بَليغًا باعتبار الْقَائل والْمَقُول لهُ، وَهُو أنْ يقصد الْقائلُ أمرًا، فيوردهُ علىٰ وجه حَقيق أنْ يَقْبلهُ المقُولُ لهُ، وقولُهُ - تعالَىٰ -: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء: ٦٣]، يَصحُّ حَمْلُهُ علَىٰ المعنيَيْنِ».

(٢) أخرجَ التِّرمذيُّ في «سننه» (٢/١١٢) بسنَد صَحيح، صَحَّحهُ الألبانيُّ في «إرواء الغليل» (٢٤٥٥) من حديث الْعرْبَاض بْن سَارِيَة - رضي الله عنه - قَالَ: «وعظَنَا رَسُولُ الله - صلى الله عليه وسلم - موعظةً بليغةً!، ذَرفَتْ منْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ منها الْقُلُوبُ!».

فمِنْ خلال هذا الحديث تَسْتَطيعُ أنْ تُدْرِكَ - بحَوَاسِّكَ الَّتي منحكَ اللهُ إيّاها - أنَّ الْبلاغةَ نفاذٌ إِلَىٰ الْقَلْبِ والْعقْلِ، وحَديثٌ يحملُ قَدْرًا واضحًا من الأهَمِّيَّة، ومَوْقفٌ يَحْملُ طابعَ الإفادة والْمُتْعة.

البَلاغَةُ اصْطلاحًا:

وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْكَلامُ فَصِيحًا قَوِيًّا فَنِّيًا، يَتْرُكُ فِي النَّفْسِ أَثَرًا خَلاَّبًا، وَيُنَاسِبُ الشَّخْصَ، وَالحَالَ، وَالزَّمَانَ.

فَمثَالُ الشَّخْص:

فَلَوْ قُلْتَ لزَوْجَتكَ الأُمِّيَّة: نَاولِينِي المِزْبَرَ منَ الْقِمَطْرِ (تُرِيدُ الْقَلَمَ منَ المحْفَظَة) - لَمْ تَكُنْ بَلِيغًا رَغْمَ فَصَاحَتِه وَقُوَّتِه[١]؛ لأَنَّهُ لَمْ يُلائِمْ مُسْتَوَىٰ زَوْجَتِكَ[٢].

وَمثَالُ الْحَال:

فَلَوْ دَعَوْتَ إِلَىٰ صُلْحٍ، فَتَلَوْتَ قَوْلَ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -: ﴿ولكُمْ في القصاص حياةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] - لَمْ تَكُنْ بَلِيغًا.

أمَّا لو تَلَوْتَ قَوْلَ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -: ﴿وأن تعفُوا أقْرَبُ للتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:

---

(١) لَيْسَ مِنَ الْبَلاغَة الحَديثُ مَعَ الْعَوَامِّ بالعَامِّيَّة بدعْوَىٰ إِفْهامَهُم؛ فَإِنَّ مِنْ شُرُوطِ الْبَلاغَة أَنْ يَكُونَ الْكَلامُ بالفُصْحَىٰ، فَقَوْلُكَ لزَوْجَتكَ الأُمِّيَّة: نَاولِيني القلمَ منَ المحْفَظة لَفْظٌ فَصِيحٌ، سَقَطَ فِي مَسْقَطِه، كَذَلكَ إن كَانَ لَكَ زَوْجَةٌ أديبةٌ، فَقُلْتَ لَهَا: نَاولِيني المِزْبَرَ مِنَ الْقِمَطْرِ هُوَ - أَيْضًا - لَفْظٌ فَصِيحٌ، سَقَطَ فِي مَسْقَطِه؛ وَلِهذَا قِيل: لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ، وَعَرَّفَ الْبَعْضُ البلاغَةَ بِأَنَّهَا: «الكلمةُ الْمُنَاسِبَةُ فِي المكَانِ المُنَاسِب».

وَهَكذَا لُغَتُنَا الحبيبة - أيُّهَا الحبيبُ - لَها مُرادفات تفوقُ الحصر، فكُلُّ شَخْصٍ نَكيلُ لَهُ بِالمِكْيَالِ الَّذي يُلائِمُهُ، وهَذه هِي الْبَلاغَةُ.

وَأَمَّا الحديثُ مَعَ الْعَوَامِّ بِالْعَامِّيَّة بدعْوَىٰ إفهامهم، فَقد قَالَ الدُّكْتُور/ فتحي جُمعة أستاذ العُلوم اللُّغويَّة بكُلِّيَّة دار العُلومِ - حَفظَهُ اللهُ وَعَافاهُ - كَمَا فِي كتاب «فقه الأخلاق» للعدويّ (١/ ٣١٤):

«أمَّا الْجُنوحُ للعامِّيَّة بدعوىٰ «إفهام العوامّ»، فَإن لم يكن مُداراةً للعجزِ عن الْفُصْحَىٰ، وَقِصَرِ الْبَاعِ فِي اسْتِعْمَالِهَا - فهو ادِّعاءٌ يَظْلِمُ الْفُصْحَىٰ وَالعوامَّ فِي وَقْتٍ وَاحدٍ مَعًا!.

يَظْلِمُ الْفُصْحَىٰ بِأنَّها غَيْرُ مفْهُومَةٍ، ووالله، إنَّها لمفْهومةٌ!، وَيَظْلِمُ الْعَوامَّ بِأَنَّهُمْ لا يَفْهَمُونَ، وَتَاللهِ، إنَّهُمْ لَيفْهَمُونَ!، وَإلاَّ فَكيفَ يَخْشَعونَ لِلْقُرْآن، وَيَتَأثَّرونَ ببالِغِ الْمَوْعظَة وَجَميلِ الْبَيَانِ؟!» اهـ.

(٢) «تَيْسِيرُ الْبَلاغة» لأحمد قلاش (ص١٠).

٢٣٧]، وَقَوْلَ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨] - كُنْتَ - حَقًّا - فَصِيحًا بَلِيغًا؛ لأَنَّكَ دَعَوْتَ لِلصُّلْحِ، وَلَمْ تَدْعُ لِتَنْفِيذِ الحُكْمِ.

وَبِالنِّسْبَةِ لِلزَّمَانِ:

فَإِذَا كَانَ الزَّمَانُ زَمَانَ ظُلْمٍ وَجَوْرِ سُلْطَانٍ، فَصَعِدْتَ المِنْبَرَ، تَحُثُّ النَّاسَ عَلَىٰ الخُرُوجِ، وَتُهَيِّجُهُمْ عَلَىٰ سُلْطَانِهِمْ - لَمْ تَكُنْ بَلِيغًا؛ لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ الخُرُوجِ مِنَ المَفَاسِدِ أَعْظَمَ مِنَ المَصَالِحِ، وَلَكِنْ إِنْ تَحَدَّثْتَ عَنْ عَدْلِ عُمَرَ وَصَلاحِ رَعِيَّتِهِ، فَقَدْ بَلَغْتَ مُرَادَكَ، وَكُنْتَ فَصِيحًا بَلِيغًا، وَهَكَذَا.

وَلِهَذَا قِيلَ: «رُبَّ كَلامٍ فِي نَفْسِهِ حَسَنًا خَلاَّبًا، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ فِي غَيْرِ مَكَانِهِ، وَسَقَطَ فِي غَيْرِ مَسْقَطِهِ - خَرَجَ عَنْ حَدِّ الْبَلاغَةِ»(١).

بَلْ إِنَّهُ يُعَدُّ مَعِيبًا عِنْدَ الحُكَمَاءِ - فَضْلاً عَنِ الْبُلَغَاءِ - كَمَا قِيلَ:

وَإِنَّ كَلامَ المَرْءِ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ(٢) ... لَكَالنَّبْلِ(٣) تَهْوِي(٤) لَيْسَ فِيهَا نِصَالُهَا(٥)

---

(١) «الْبَلاغَةُ الوَاضِحَةُ» لِعَلِيٍّ الجَارِم، وَمُصْطَفَىٰ أَمِين (ص١١).

(٢) كُنْهِه - بِالضَّمِّ -: وَقْتِه وَوَجْهِه.

(٣) النَّبْل - بِالفتحِ -: السِّهَام، وهي مُؤَنَّثَة، لا واحدَ لها مِنْ لَفْظِهَ، وقد جَمَعوها عَلَىٰ نِبَالٍ، وأَنْبَالٍ، ونُبْلانٍ - بِالضَّمِّ -.

(٤) تَهْوِي - من بَابِ رَمَىٰ - هُوِيًّا - بِالضَّمِّ وَالفتحِ - وَهَوَيَانًا: أي تَسْقُطُ.

(٥) نِصَال: جَمْعُ نَصْلٍ - بِالفتحِ -، وهو حَدِيدَةُ السَّهْمِ مَا لَمْ يَكُنْ له مَقْبِضٌ، وَيُجْمَعُ - أَيْضًا - عَلَىٰ أَنْصُلٍ، وَنُصُولٍ.

الفَصَاحَةُ

الْفَصَاحَةُ لُغَةً:

الإِبَانَةُ وَالظُّهُور.

قَالَ اللّٰهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ – : ﴿ **وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا** ﴾ [القصص: ٣٤]، أَيْ: أَبْيَنُ مِنِّي قَوْلاً.

وَالْعَرَبُ تَقُولُ: أَفْصَحَ الصُّبْحُ: إِذَا أَضَاءَ. وَأَفْصَحَ الصَّبِيُّ: إِذَا بَانَ كَلامُهُ.

وَتُعَرَّفُ الْفَصَاحَةُ اصْطِلاحًا:

هِيَ عِبَارَةٌ عَنِ الأَلْفَاظِ الْبَيِّنَةِ الظَّاهِرَةِ، الْمُتَبَادِرَةُ إِلَىٰ الْفَهْمِ، الْمَأْنُوسَةُ الاسْتِعْمَالُ بَيْنَ الأُدَبَاءِ وَالشُّعَرَاءِ لِمَكَانِ حُسْنِهَا، وَلَطَافَةِ مَوْقِعِهَا، وَرَشَاقَةِ تَرْكِيبِهَا.

فَصَاحَةُ الكَلِمَةِ:

أَيْ أَخِي، لَنْ تَكُونَ الْكَلِمَةُ فَصِيحَةً بَلِيغَةً، حَتَّىٰ تَسْلَمَ مِنْ أَرْبَعَةِ عُيُوبٍ[1]:

---

(١) قَالَ ابْنُ الأَثِيرِ فِي كِتَابِهِ «الْمَثَلُ السَّائِرُ» (١٤٥): «الأَلفاظُ تنقسمُ إِلَىٰ ثلاثةِ أقْسَامٍ، قسْمَانِ حَسَنَانِ، وقِسْمٌ قبيحٌ، فَالْقِسْمَانِ الحَسَنَانِ:

أحَدُهُمَا – مَا تَداولَ استعْمالَهُ السَّلَفُ والخلَفُ مِنَ الزَّمَنِ القديمِ إِلَىٰ زمانِنا هذا، ولا يُطلَقُ عليهِ أنّهُ وَحْشِيّ.

والآخَرُ – ما تداوَلَ اسْتِعْمَالَهُ السَّلَفُ دُونَ الخلَفِ، ويختلفُ في اسْتِعمالِهِ بالنِّسْبةِ إِلَىٰ الزَّمنِ وأهْلِهِ، وهذا هو الَّذي يُعابُ اسْتِعمالُهُ عندَ العربِ؛ لأنّه لم يكن عندهم وحشيًّا، وهو عندنا وَحشِيٌّ.

ولا يسبقْ وَهْمُكَ إِلَىٰ قول قُصراءِ النَّظرِ بأنَّ العربَ كانَتْ تستعمل مِنَ الأَلْفَاظِ كذا وكذا، فهذا دليل على أنه حسن، بل ينبغي أنْ نتعلَّمَ أنَّ الَّذي نستحسنُهُ نحنُ في زمانِنا هذا هو الذي كان عند العرب مُسْتَحسنًا، والَّذي نستقبِحُهُ هُوَ الَّذي كانَ عِنْدَهُمْ مُستقبَحًا، والاستعمالُ ليس بدليل على الحسن، فإنّنا نحن نستعملُ الآنَ من الكلامِ ما ليس بحَسَنٍ، وإنّما نستعملُهُ لضرورة ...

العَيْبُ الأَوَّلُ مِنْ عُيُوبِ الكَلِمَةِ - تَنَافُرُ الحُرُوفِ (١) :

وَتَنَافُرُ الحُرُوفِ : هُوَ وَصْفٌ فِي الْكَلِمَةِ، يُوجِبُ ثِقَلَهَا عَلَىٰ السَّمْعِ، وَصُعُوبَةَ أَدَائِهَا بِاللِّسَانِ؛ بِسَبَبِ كَوْنِ حُرُوفِ الْكَلِمَةِ مُتَقَارِبَةَ المَخَارِجِ (٢) .

= اسْتِعْمَالُ الحَسَنِ بِمُمْكِنٍ فِي كُلِّ الأَحْوَالِ، واعلَمْ أَنَّ اسْتِحْسَانَ الأَلْفَاظِ واستِقْبَاحَهَا لا يُؤخَذُ بِالتَّقْلِيدِ مِنَ الْعَرَبِ؛ لأَنَّهُ شَيْءٌ لَيْسَ لِلتَّقْلِيدِ فِيهِ مَجَالٌ، وَإِنَّمَا هو شَيْءٌ لَهُ خَصَائِصُ وهَيْئَاتٌ وعلاماتٌ، إِذَا وُجِدَتْ عُلِمَ حُسْنُهُ مِنْ قُبْحِهِ، ألا تَرَىٰ أَنَّ لَفْظَةَ الْـمُزْنَةِ - مثلاً - حَسَنَةٌ عِنْدَ النَّاسِ كَافَّةً مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِم، لا يَخْتَلِفُ أَحَدٌ فِي حُسْنِهَا، وَكَذَلِكَ لَفْظَةُ الْبُعَاقِ، فَإِنَّها قَبِيحَةٌ عند النَّاسِ كَافَّةً مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ، فَإِذَا اسْتَعْمَلَهَا الْعَرَبُ، لا يَكُونُ اسْتِعْمَالُهُمْ إِيَّاهَا مُخْرِجًا لَهَا عَنِ الْقُبْحِ، وَلا يُلْتَفَتُ - إِذَنْ - إِلىٰ اسْتِعْمَالِهِمْ إِيَّاهَا، بَلْ يُعَابُ مُسْتَعْمِلُهَا ، وَيُغْلَظُ لَهُ النَّكِيرُ حَيْثُ اسْتَعْمَلَهَا، فَلا تَظُنَّ أَنَّ الْوَحْشِيَّ مِنَ الأَلْفَاظِ مَا يَكْرَهُهُ سَمْعُكَ، وَيَثْقُلُ عَلَيْكَ النُّطْقُ بِه، وَإِنَّمَا هُوَ الْغَرِيبُ الَّذِي يَقِلُّ استِعْمَالُهُ، فَتَارَةً يَخِفُّ عَلَىٰ سَمْعِكَ، وَلا نَجِدُ بِه كَرَاهَةً، وتَارَةً يَثْقُلُ عَلَىٰ سَمْعِكَ، وتَجِدُ مِنْهُ الْكَرَاهَةَ، وذَلِكَ فِي اللَّفْظِ عَيْبَانِ : كَوْنُهُ غَرِيبَ الاسْتِعْمَالِ، وكَوْنُهُ ثَقِيلاً عَلَىٰ السَّمْعِ، كَرِيهًا عَلَىٰ الذَّوْقِ، وَلَيْسَ وَرَاءَهُ فِي الْقُبْحِ دَرَجَةٌ أُخْرَىٰ، ولا يَسْتَعْمِلُهُ إِلاَّ أَجْهَلُ النَّاسِ مِمَّنْ لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِهِ شَيْءٌ مِنْ مَعْرِفَةِ هَذَا الْفَنِّ أَصْلاً » .

(١) التَّنَافُرُ قِسْمَانِ :

الأَوَّلُ - شَدِيدُ الثِّقَلِ : كـ(الظَّشِّ) لِلْمَوْضِعِ الخَشِنِ، وَنَحْوِ (هُعْخُعٍ) لِنَبَاتٍ تَرْعَاهُ الإِبِلِ، كَقَوْلِ الأَعْرَابِيِّ : تَرَكْتُ نَاقَتِي تَرْعَىٰ الْهُعْخُعَ .

وَالثَّانِي - خَفِيفٌ كـ(النَّقْنَقَةِ) لِصَوْتِ الضَّفَادِعِ، و(النُّقَاخِ) لِلْمَاءِ الْبَارِدِ الْعَذْبِ الصَّافِي، وَنَحْوِ (مُسْتَشْزِرَاتٍ) بِمَعْنَىٰ : مُرْتَفِعَاتٍ مِنْ قَوْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ يَصِفُ شَعْرَ ابْنَةِ عَمِّهِ :

غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إِلَىٰ الْعُلا ... تَضِلُّ الْعِقَاصُ فِي مُثَنًّى وَمُرْسَلِ

وَالْغَدَائِرُ : الضَّفَائِرُ، جمعُ غَدِيرَةٍ . وَتَضِلُّ : تغيبُ - والعِقَاصُ - بالكسْرِ : المَدَارِىٰ، جمعُ مِدْرَىٰ - بِزِنَةِ مِبْرَدٍ -، وهُوَ آلَةٌ تُعْمَلُ مِنْ حَدِيدٍ أو خَشَبٍ علىٰ شَكْلِ سِنٍّ مِنْ أَسْنَانِ المُشْطِ، وأَطْوَلُ مِنْهُ، تُسَرَّحُ بِهِ الشَّعْرُ المُتَلَبِّدُ، وَيَسْتَعْمِلُهُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مُشْطٌ . وَالمُثَنَّىٰ : المَفْتُولُ المَلْوِيُّ . وَالمُرْسَلُ : ضِدُّهُ .

(٢) قَالَ ابْنُ سِنَانٍ فِي كِتَابِهِ « سِرّ الفَصَاحَة » (ص٦٥) : « إِنَّ الحروفَ الَّتي هِيَ أَصْوَاتٌ تجري من السَّمْعِ مَجْرَىٰ الأَلْوَانِ مِنَ البصرِ، ولا شَكَّ فِي أَنَّ الأَلوانَ الْـمُتَبَايِنَةَ إِذَا اجْتَمَعَتْ كَانَتْ فِي المنظرِ أحسن من الأَلْوانِ المُتقارِبَةِ؛ وَلِهَذَا كَانَ الْبَيَاضُ مَعَ السَّوَادِ أَحْسَنَ مِنْهُ مع الأَصْفَرِ؛ لِقُرْبِ ما بينَهُ وبَيْنَ الأصفرِ، وبُعْدِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الأَسْوَدِ .

واعْلَمْ – أخِي – أنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ ضَابِطٌ لِمَعْرِفَةِ الثِّقَلِ وَالصُّعُوبَةِ سِوَىٰ الذَّوْقِ السَّلِيمِ(١).

= وَإذَا كانَ هذا موجوداً علَىٰ هذه الصِّفَة، لا يَحْسُنُ النِّزَاعُ فيه، كَانَت الْعِلَّةُ في حُسْنِ الأَلْفَاظِ المؤلَّفةِ منَ الحُرُوفِ المُتَبَاعِدَةِ – هيَ الْعِلَّةَ في حُسْنِ النُّقُوشِ إذَا مُزِجَتْ منَ الأَلْوَانِ المُتباعِدَة، وقَدْ قَالَ في هَذَا المَعْنَىٰ:

فَالوَجْهُ مِثْلُ الصُّبْحِ مُبْيَضٌّ ... والْفَرْعُ مِثْلُ اللَّيْلِ مُسْوَدُّ
ضِدَّانِ لَمَّا اسْتَجْمَعَا حَسُنَا ... وَالضِّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ

وهذه الْعِلَّةُ يَقَعُ لِلْمُتَأَمِّلِ وَغَيْرِ المُتَأَمِّلِ فَهْمُهَا، ولا يُمْكِنُ مُنَازِعٍ يَجْحَدُهَا.

وَمِثَالُ التَّأْلِيفِ منَ الحُرُوفِ المُتَبَاعِدَةِ كثيرةٌ، جُلُّ كلامِ العرب عليه، فلا يُحتاجُ إلىٰ ذِكْرِه، فَأَمَّا تَأليفُ الحروفِ المُتقارِبَة، فقدْ قدَّمْنَا في الفصلِ الرَّابعِ مثالاً حُكِيَ منْهُ، وهو (الهُعْخُعُ).

وَلِحُرُوفِ الحَلْقِ مَزِيَّة في القُبْحِ إذَا كَانَ التَّألِيفُ منْهَا فَقَطْ، وأَنْتَ تُدْرِكُ هذَا أَوْ تَسْتَقْبِحهُ، كَمَا يَقْبُحُ عِنْدَكَ بَعْضُ الأَمْزِجَة منَ الأَلْوَانِ، وبَعْضُ النَّغَمِ منَ الأَصْوَاتِ».

(١) الذَّوْقُ في اللُّغَة: الحاسَّةُ يُدْرَكُ بِهَا طَعْمُ المَآكِلِ. وَفي الاصْطِلاح: قُوَّةٌ غَرِيزِيَّةٌ، لها اخْتِصاصٌ بإدْراك لطَائفِ الْكَلامِ وَمَحَاسنه الخَفِيَّة، وتَحْصُلُ بالمُثَابَرَة علَىٰ الدَّرْسِ، وَمُمَارَسَة كَلامِ الْبُلَغَاء، وتكرَارِه علَىٰ السَّمْعِ، وَالتَّفَطُّنِ لخواصِّ مَعانيه وتَراكِيبِه، وتَحْصُلُ – أَيْضًا – بتنزيه الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ عَمَّا يُفْسِدُ الآدَابَ والأَخْلاق؛ فَإِنَّ ذَلِكَ أَقْوَىٰ أَسْبَابِ سَلامة الذَّوْق.

وَاعْلَمْ أنَّ الذَّوقَ السَّليمَ هُوَ الْعُمْدَةُ في مَعْرِفَة حُسْنِ الْكَلمَات وسَلاسَتِهَا، وتَمْييزِ ما فيها من وُجُوه الْبَشَاعَة، ومظَاهِرِ الاسْتِكْرَاه؛ لأَنَّ الأَلْفَاظَ أَصْوَاتٌ، فالَّذي يَطْرَبُ لصوت الْبُلْبُلِ، ويَنْفِرُ منْ صَوْت الْبُومِ والغِرْبَان – يَنْبُو سَمْعُهُ عن الْكَلمَة، إذَا كَانَتْ غَرِيبَةً مُتنافرةَ الحُرُوف، ألا تَرَىٰ أنَّ كَلمَتَي المُزْنَةِ وَالدِّيمَةِ (للسَّحَابَة المُمْطِرَة) كِلْتَاهُمَا سَهْلَةٌ عَذْبَةٌ، يَسْكُنُ إلَيْهَا السَّمْعُ، بخلاف كَلمَة البُعَاق الَّتي في مَعْنَاهُمَا؛ فَإنَّهَا قَبِيحَةٌ تَصُكُّ الأُذُنَ. وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ في مُفْرَدَاتِ اللُّغَة، تَسْتَطِيعُ أَنْ تُدْرِكَهُ بِذَوْقِكَ. انظُرْ «جَواهِرَ البَلاغَة» (ص٣٠).

وَمِنْ دُرَرِ ابْنِ الأَثِيرِ قَوْلُهُ في كتابه «المَثلُ السَّائرُ» (ص١٤٩): «وقدْ رَأَيْتُ جَمَاعَةً منَ الجُهَّال، إذَا قِيلَ لأَحَدِهِمْ: إنَّ هذه اللَّفْظَةَ حَسَنَةٌ، وَهَذِه قَبيحَةٌ – أَنْكَرَ ذَلِكَ، وَقَالَ: كُلُّ الأَلْفَاظِ حَسَنَةٌ، وَالوَاضِعُ لَمْ يَضَعْ إلاَّ حَسَنًا.

وقَدْ يَبْلُغُ جَهْلُهُ أَلاَّ يُفَرِّقَ بَيْنَ الغَضَّة «الغُصْنُ» والفظَّة «العُسْلُوج»، وبين لفظة «المُدامَة» ولَفْظَة «الإسْفَنْط» (أَيْ: الشَّرَاب)، وَبَيْنَ لَفْظَة «السَّيْف» وَلَفْظَة «الخَنْشَليلش»، وبينَ لفظة «الأَسَد» ولفظة =

الْعَيْبُ الثَّانِي - غَرَابَةُ الاسْتِعْمَالِ (١):

وَهِيَ كَوْنُ الْكَلِمَةِ غَيْرَ ظَاهِرَةِ المَعْنَىٰ، وَلا مَأْلُوفَةَ الاسْتِعْمَالِ عِنْدَ الْعَرَبِ الْفُصَحَاءِ؛ لأَنَّ المُعَوَّلَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ اسْتِعْمَالُهُمْ، وَلا ضَابِطَ لمَعْرِفَةِ غَرَابَةِ

= «الفَدَوْكَس»، فَلا يَنبغي أن يُخاطَبَ بخطَاب، ولا يُجَابُ بِجَواب، بَلْ يُترَكُ وشَأْنُهُ، كَمَا قيل: اتركوا الجَاهِلَ بجَهْلِه، ولَوْ أَلْقَىٰ الجَعْرَ (أَيْ: الْعَذِرَةَ اليَابِسَةَ) في رَحْلِه، وَمَا مَثَلُهُ فِي هَذَا المَقَامِ إِلاَّ كَمَنْ يُسَوِّي بَيْنَ زِنْجِيَّةٍ سَوْدَاءَ مُظْلِمَةِ السَّوَادِ، شَوْهَاءِ الخَلْقِ، ذَاتِ عُيُونٍ مُحْمَرَّةٍ، وَشَفَةٍ غَلِيظَةٍ كَأَنَّهَا كلوة، وشَعَرٍ قَطَطٍ (أَيْ: قَصِيرٍ جَعْدٍ) كَأَنَّهُ زَبِيبَة - وَبَيْنَ صورةٍ رُومِيَّةٍ بَيْضَاءَ، مُشْرَبَةٍ بِحُمْرَةٍ، ذَاتِ خَدٍّ أَسِيل (طَوِيلٍ مُسْتَوٍ)، وطَرْفٍ كَحِيلٍ، وَمَبْسِمٍ (أَيْ: ثَغْرٍ) كَأَنَّمَا نُظِمَ مِنْ أَقَاحٍ (الأَقَاحُ: جَمْعُ أُقْحُوان، وَهُوَ البَابُونج نَبْتٌ طَيِّب الرِّيح، حَوَالَيْه وَرَقٌ أَبْيَضٌ، وَوَسَطُهُ أَصْفَرُ)، وطُرَّةٍ (أَيْ: نَاصِيَةٍ) كَأَنَّهَا لَيْلٌ عَلَىٰ صَبَاحٍ، وإذَا كَانَ - مِنْ سُقْمِ النَّظَرِ - يُسَوِّي بَيْنَ هَذه الصُّورَة وَهَذه، فَلا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ - مِنْ سُقْمِ الفِكْرِ - أَنْ يُسَوِّيَ بَيْنَ هَذه الأَلْفَاظ وَهَذه، ولا فَرْقَ بَيْنَ النَّظَرِ والسَّمْعِ في هَذَا المَقَام؛ فَإِنَّ هَذه حَاسَّة، وهَذه حَاسَّة، وقيَاسُ حاسَّةٍ علىٰ حاسَّةٍ مُنَاسِبٌ».

(١) الْغَرَابَةُ قسمان:

الْقِسْمُ الأَوَّلِ - ما يُوجِبُ حَيْرَةَ السَّامِعِ فِي فَهْمِ المَعْنَىٰ المَقْصودِ منَ الكَلِمَة لتردُّدهَا بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ بلا قَرِينَة، وَذَلِكَ فِي الأَلْفَاظ المُشْتَرَكَة: (كَمُسَرَّجٍ) منْ قَوْلِ رُؤْبَةَ بْنِ العَجَّاجِ:

وَمُقْلَةً وَحَاجِبًا مُزَجَّجًا ... وَفَاحِمًا وَمَرْسِنًا مُسَرَّجَا

فَلا يُعْلَمُ مَا أَرادَ بقَوْله: «مُسَرَّجًا»، حتَّىٰ حَارَ أَئِمَّةُ اللُّغَة لتردُّد الكلمةُ بَينَ مَعْنَيَيْنِ بدُون قَرِينَةٍ.

فـ«المَرْسِنُ»: هُوَ الأَنْفُ، فَمَا مَعْنَىٰ أَنْ يكونَ الأَنْفُ مُسَرَّجًا؟، قيل: المُسَرَّجُ: المُحَسَّنُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ السِّرَاجِ الَّذي يُعْطي الإِضَاءَةَ، فَكَأَنَّهُ يصفُ أَنْفَهَا بالضَّوْءِ واللَّمَعَان.

وَقَالَ ابْنُ دُرَيْد: إِنَّ أَنْفَهَا في الاسْتوَاءِ والدِّقَّة كَالسَّيْف. فانظُرْ كيفَ أَدْخَلَ الحَيْرَةَ عَلَىٰ السَّامِعِ فِي فَهْمِ المَقْصُود.

وَأَمَّا مَعَ وُجُود القَرِينَة فَلا غَرَابَةَ: كَلَفْظَة «عَزَّرَ» في قَوله - تَعَالَىٰ -: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فَإِنّها مُشْتركة بين التعظيم والإهانة، لكن ذكر النّصر قرينة علىٰ إرادة التعظيم.

القسم الثَّاني - ما يُعابُ استعمالُهُ لاحتياجٍ إلىٰ تَتَبُّعِ اللُّغَاتِ، وكَثْرَةِ الْبَحْثِ والتَّفْتيشِ في المَعَاجمِ، وَقَدْ يَعْثُرُ علىٰ الْكَلِمَة بَعْدَ كَدٍّ وَجهْدٍ جَهيد، وقَدْ لا يَعْثُرُ عَلَيْهَا الْبَتَّةَ.

وَمثْلُ هَذَا لا يَحْسُنُ وَلا يَجْمُلُ. انظُرْ «جَوَاهِرَ الْبَلاغَة» (١٢ - ١٣) بتَصَرُّف.

الاسْتِعْمَالِ إلاَّ بِكَثْرَةِ الاطِّلاعِ عَلَىٰ كَلامِ الْعَرَبِ، وَالإِحَاطَةِ بِالْمُفْرَدَاتِ الْمَأْنُوسَةِ.

الْعَيْبُ الثَّالِثُ - مُخَالَفَةُ الْقِيَاسِ:

بِأَنْ تَكُونَ الْكَلِمَةُ مُخَالِفَةً لِقَوَاعِدِ الصَّرْفِ: كَقَوْلِ الرَّاجِزِ:

الْحَمْدُ للهِ العَلِيِّ الأَجْلَلِ

فَإِنَّ كَلِمَةَ «الأَجْلَلِ» الَّتِي ذَكَرَهَا الرَّاجِزُ جَاءَ بِهَا عَلَىٰ هَيْئَةٍ مُخَالِفَةٍ لِلْقِيَاسِ اللُّغَوِيِّ الصَّرْفِيِّ؛ لأَنَّ الْقِيَاسَ هُوَ: إِدْغَامُ الْمِثْلَيْنِ (لَ لَ)، وَلَكِنَّ الرَّاجِزَ أَتَىٰ بِالْكَلِمَةِ غَيْرَ مُدْغَمَةِ الْمِثْلَيْنِ، فَالْقِيَاسُ أَنْ يَقُولَ: الْعَلِيِّ الأَجَلِّ.

الْعَيْبُ الرَّابِعُ - الْكَرَاهَةُ فِي السَّمْعِ:

بِأَنْ تَكُونَ الْكَلِمَةُ وَحْشِيَّةً، تَأْنَفُهَا الطِّبَاعُ، وَتَمُجُّهَا الأَسْمَاعُ، وَقَدْ مَثَّلُوا لِذَلِكَ بِكَلِمَةِ «الجِرِشَّىٰ» فِي قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ:

مُبَارَكُ الاسْمِ، أَغَرُّ اللَّقَبْ كَرِيمُ الجِرِشَّىٰ[1]، شَرِيفُ النَّسَبْ

فَإِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ - وَإِنْ كَانَتْ عَرَبِيَّةً - ثَقِيلَةٌ، تَنْبُو عَنْهَا الأَسْمَاعُ، كَمَا تَنْبُو عَنْ سَمَاعِ الأَصْوَاتِ الْمُنْكَرَةِ[2].

---

(١) الجرشَّىٰ - بكسر الجيم والرَّاء مقصوراً -: النَّفْس.

(٢) أخي، لِكَيْ تَبْلُغَ حَاجَتَكَ فِي فَهْمِ الْكَلِمَةِ الْفصيحَة؛ يَجِبُ أَنْ تُبَالِغَ فِي اخْتِيَارِ اللَّفْظَةِ الخَفِيفَةِ عَلَىٰ الأَلْسِنَة، اللَّذِيذَةِ عَلَىٰ الأَسْمَاعِ، الحُلْوَةِ فِي المَذَاقِ، الجَارِيَةِ عَلَىٰ العَادَة، المَأْلُوفَةِ فِي الاسْتِعْمَالِ العَرَبِيِّ، فَلا اللِّسَانُ تُكْبِرُهَا، ولا الأَسْمَاعُ تَرْفُضُهَا، مِثْل: كلمة «جَحِيْش» بِمَعْنَىٰ: «فَرِيد»، وَكَلِمَة «جَفَخَتْ» بِمَعْنَىٰ: فَخَرَتْ.

وَعَلَيْكَ - أَيْضًا - أَنْ تَسْتَعْمِلَ الأَلْفَاظَ القَوِيَّةَ الجَزْلَةَ فِي مَوْطِنِ الْقُوَّة، حَيْثُ الْوَعِيدُ وَالزَّجْرُ وَالتَّهْدِيدُ، وَالحَمَاسَةُ وَالْفَخْرُ، وَالمُصَارَعَةُ، وَالْفُتُوَّةُ؛ وَالأَلْفَاظَ الرَّقِيقَةَ فِي مَوَاطِنِهَا، حَيْثُ التَّلَطُّفُ وَاسْتِجْلابُ المَوَدَّة، وَحُسْنُ الْوَعْد، وَالْقُرْآن الكريمُ أَعْدَلُ شَاهِد عَلَىٰ هَذَا الأُسْلُوب.

وَمِنْ أَمْثِلَةِ الأَلْفَاظِ الْقَوِيَّةِ الجَزْلَةِ فِي مَوَاطِنِهَا فِي الأُسْلُوبِ الْقُرْآنِيِّ قَوله - تَعَالَىٰ -: ﴿ونُفِخَ فِي الصُّورِ =

فَصَاحَةُ الْكَلامِ:

أيْ أخي، لِكَي يَكُونَ الْكَلامُ فَصِيحًا - بَعْدَ فَصَاحَةِ الْكَلِمَةِ - يَجِبُ أنْ يَسْلَمَ مِمَّا يُبْهِمُ مَعْنَاهُ، وَيَحُولُ دُونَ فَهْمِ المَعْنَى المُرَادِ.

وَلابُدَّ أنْ يَخْلُوَ الْكَلامُ - لِيَكُونَ فَصِيحًا - مِنْ سِتَّةِ عُيُوبٍ[1]:

الْعَيْبُ الأوَّلُ - ضَعْفُ التَّأْلِيفِ:

وَهُوَ أنْ يَكُونَ الْكَلامُ جَارِيًا عَلَى خِلافِ قَوَانِينِ النَّحْوِ: كَرُجُوعِ الضَّمِيرِ عَلَى مُتَأَخِّرٍ لَفْظًا وَرُتْبَةً فِي قَوْلِ حَسَّانَ - رضي الله عنه -:

وَلَوْ أنَّ مَجْداً أخْلَدَ الدَّهْرَ وَاحِداً ... مِنَ النَّاسِ أبْقَى مَجْدُهُ الدَّهْرَ مُطْعِمَا

فَهَذَا الْبَيْتُ غَيْرُ فَصِيحٍ؛ لأنَّ الضَّمِيرَ فِي «مَجْدُهُ» عَائِدٌ إلَى «مُطْعِما»، وَهُوَ مُتَأَخِّرٌ - كَمَا تَرَى - لَفْظًا وَرُتْبَةً؛ لأنَّهُ مَفْعُولٌ بِهِ لـ«أبْقَى».

الْعَيْبُ الثَّانِي - تَنَافُرُ الْكَلِمَاتِ مُجْتَمِعَةً:

وَهُوَ أنْ تَكُونَ الْكَلِمَاتُ ثَقِيلَةً مِنْ تَرْكِيبِهَا مَعَ بَعْضِهَا، تَمُجُّهَا الأسْمَاعُ، وَتَنْفِرُ مِنْهَا الطِّبَاعُ، فَلا الذَّوْقُ يَسْتَمْلِحُهَا، وَلا النَّفْسُ تَشْتَهِيهَا، كَقَوْلِ الرَّاجِزِ:

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرُ ... وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

فَإنَّ هَذَا الْبَيْتَ لا يُمْكِنُ لأحَدٍ أنْ يُنْشِدَهُ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مُتَوَالِيَاتٍ دُونَ أنْ يَتَتَعْتَعَ؛ لأنَّ اجْتِمَاعَ كَلِمَاتِهِ وَقُرْبَ مَخَارِجِ حُرُوفِهَا يُحْدِثَانِ ثِقَلاً ظَاهِرًا، مَعَ أنَّهُ لَوْ أُخِذَتْ كُلُّ كَلِمَةٍ مِنْهُ وَحْدَهَا، لَكَانَتْ غَيْرَ مُسْتَكْرَهَةٍ وَلا ثَقِيلَةٍ.

= ﴿فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾ [الزمر: ٦٨]، فالموقف فيه شدة وهول «يوم القيامة»، استعملت الألفاظ المناسبة لذلك ﴿نفخ - صعق﴾، ومن الألفاظ الرقيقة في موضعه - تعالى -: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ [البقرة: ١٨٦].

(١) انظر «جواهر البلاغة» (ص ٣٠).

الْعَيْبُ الثَّالِثُ - التَّعْقِيدُ اللَّفْظِيُّ:

وَهُوَ كَوْنُ الْكَلامِ خَفِيَّ الدَّلالَةِ عَلَىٰ الْمَعْنَىٰ الْمُرَادُ بِه[١]، مِمَّا يُوقِعُ السَّامِعَ فِي حَيْرَةٍ مِنْ فَهْمِ الْمَعْنَىٰ الْمُرَادُ، وَالْحِكْمَةُ أَنْ تَكُونَ الْكَلِمَاتُ خَدَمَ الْمَعْنَىٰ لا الْعَكْس.

الْعَيْبُ الرَّابِعُ - التَّعْقِيدُ الْمَعْنَوِيُّ:

وَهُوَ أَنْ يَعْمِدَ الْمُتَكَلِّمُ إِلَىٰ الْحَدِيثِ فِي الْمَعْنَىٰ، مُسْتَخْدِمًا كَلِمَةً لا تَدُلُّ عَلَىٰ الْمَعْنَىٰ الْمُرَادُ، وَقَدْ لا يَسْتَخْدِمُ اللَّوَازِمَ الْقَرِيبَةَ، وَالْقَرَائِنَ الْوَاضِحَةَ، الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ الْمَعْنَىٰ الْمَقْصُود، مِمَّا يَجْعَلُ الْمَعْنَىٰ الثَّانِي مِنَ الأَوَّلِ بَعِيدًا عَنِ الْفَهْمِ عُرْفًا، كَقَوْلِ الْقَائِلِ: «نَشَرَ الْمَلِكُ أَلْسِنَتَهُ فِي الْمَدِينَةِ» يُرِيدُ «جَوَاسِيسَهُ»، وَالْعُرْفُ «عُيُونَهُ»[٢].

التَّعْقِيدُ الْمُعَاصِر:

أَي أَخِي، أُحَذِّرُكَ التَّعْقِيدَ الْمُعَاصِرَ، وَهُوَ: الإِغْرَاقُ فِي الرَّمْزِيَّةِ، الَّتِي تَجْعَلُ لِكُلِّ كَاتِبٍ وَشَاعِرٍ قَوَاعِدَهُ الْخَاصَّةَ، وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ: «الْمَعْنَىٰ فِي بَطْنِ الشَّاعِرِ أَوِ الْكَاتِبِ». وَهَذَا مُخَالِفٌ لِقَوَاعِدِ اللُّغَةِ، وَقَوَاعِدِ الْبَلاغَةِ، وَمَا عُرِفَ عَنِ الْعَرَبِ.

قَالَ فَضْلُ حَسَن عَبَّاس: «إِنَّ خَفَاءَ الْمَعْنَىٰ وَالإِيحَاءِ الَّذِي يَتَطَلَّبُ الذَّكَاءَ، وَإِعْمَالَ الذِّهْنِ - لا تُنْكِرُهُ الْبَلاغَةُ الْعَرَبِيَّةُ، وَلا يُنْكِرُهُ الْبُلَغَاءُ، وَلَكِنِ الإِغْرَاقَ فِي الرَّمْزِيَّةِ هُوَ الَّذِي تَأْبَاهُ الْعَرَبِيَّةُ بِنْتُ الشَّمْسِ وَضُحَاهَا؛ ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الرَّمْزِيَّةَ مِنْ

---

(١) كُلُّ ذلكَ يَنْشَأُ مِنْ تقديمٍ، أو تأخيرٍ، أو فَصْلٍ بَيْنَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي يَجِبُ أن تَتَجَاوَرَ مَع بعْضِهَا: كالْفَصْلِ بأجْنَبِيٍّ دَخِيلٍ بَيْنَ الموصُوفِ والصِّفَة، وبَيْنَ الْبَدَلِ وَالْمُبْدَلِ منهُ، وَبَيْنَ الْمُبْتَدَإِ والخبر، وَبَيْنَ الْمُسْتَثْنَىٰ والْمُسْتَثْنَىٰ مِنْهُ، مِمَّا يُسَبِّبُ ارْتِبَاكًا واضطرابًا شديدًا، وهَذَا يُوجِبُ اختلالَ المعْنَىٰ المراد، بَلْ واضْطِرَابَهُ، وَهُوَ مَعِيبٌ عِنْدَ أهلِ الْبَيَانِ، ولا يُوصَفُ صاحِبُهُ بالفصَاحَةِ!!.

(٢) قالَ أحدُ أئمةِ البيانِ: «إنَّ الكنايةَ الَّتِي تَسْتَعْمِلُهَا الْعَرَبُ لأغْرَاضٍ، وَيُغَيِّرُهَا الْمُتَكَلِّم، وَيُرِيدُ بِهَا أَغْرَاضًا أُخْرَىٰ - تُعْتَبَرُ خُرُوجًا عَنْ سَنَنِ الْعَرَبِ فِي اسْتِعْمَالاتِهِمْ، وَيُعَدُّ ذَلِكَ تَعْقِيدًا فِي المعنىٰ».

شَأْنِهَا أَنْ تَقْضِيَ عَلَىٰ كُلِّ وُضُوحٍ مِنْ جِهَةٍ، وأَنْ تَجْعَلَ لِكُلِّ كَاتِبٍ وَشَاعِرٍ قَوَاعِدَهُ الخَاصَّةَ، وركَائِزَهُ الَّتِي يَنْطَلِقُ مِنْهَا وَحْدَهُ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ.

إِنَّ المَجَازَ وَالْكِنَايَةَ فِي الْعَرَبِيَّةِ مِنْ أَرْوَعِ سِمَاتِهَا، وأَجْمَلِ بَسَمَاتِهَا، وَلَكِنْ عَلَىٰ أَنْ تَكُونَ الْكِنَايَةُ وَاضِحَةَ اللُّزُومِ، وَأَنْ يَكُونَ المَجَازُ ذَا عَلاقَةٍ قَرِيبَةٍ.

قَدْ أَجِدُ إِنْسَانًا بَعِيدًا عَنِ الْعَطَاءِ، لا يُحْسِنُ إِلاَّ أَنْ يَأْخُذَ، تُرَىٰ أَيَحْسُنُ أَنْ أَصِفَ هَذَا الإِنْسَانَ بِأَنَّهُ حُفْرَةٌ؛ لأَنَّ الحُفْرَةَ تَأْخُذُ وَلا تُعْطِي ؟!.

وَإِذَا وَجَدْتُ إِنْسَانًا كَثِيرَ الْقِرَاءَةِ، يَعِيشُ بَيْنَ الْكُتُبِ، أَيَحْسُنُ أَنْ أَصِفَهُ بِالْفَأْرَةِ؛ بِحُجَّةِ أَنَّ الْفَأْرَةَ تَنْخَرُ الْكُتُبَ؟!»[1].

وَلَقَدْ وَصَفَ الرَّمْزِيِّينَ الأَدِيبُ أَحْمَد حَسَن الزَّيَّات – رَحِمَهُ اللهُ – ، فَأَبْدَعَ وَأَمْتَعَ، وَضَرَبَ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ، فَقَالَ: «يَدْفَعُونَ بِالنَّظَرِيَّاتِ إِلَىٰ حَدِّهَا الأَقْصَىٰ، فَيَقَعُونَ فِي ظُلْمَةِ الْغَسَقِ، وَهُمْ يَطْلُبُونَ أَضْوَاءَ الشَّفَقِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ رَاقَهُمْ مِنَ الرَّمْزِيَّةِ ذَلِكَ التَّآلُفُ بَيْنَ اللَّفْظِ وَالمَعْنَىٰ، وَذَلِكَ التَّزَاوُجُ بَيْنَ الحَوَاسِّ المُخْتَلِفَةِ – وَبِخَاصَّةٍ بَيْنَ الْبَصَرِ وَالسَّمْعِ – فَيُعْجِبُهُمْ أَنْ يَقُولُوا: صَوْتُ الرَّائِحَةِ، وَلَوْنُ الْكَلامِ، وَعِطْرُ الْفِكْرِ، وَخُضْرَةُ الأَمَلِ، فَإِنَّ الْبَيَانَ الْعَرَبِيَّ لا يَأْبَىٰ هَذَا النَّوْعَ مِنَ المَجَازِ، مَادَامَتْ عَلاقَتُهُ قَرِيبَةً، وَمُنَاسَبَتُهُ ظَاهِرَةً.

فَإِذَا أَدَّىٰ إِلَىٰ التَّعْقِيدِ المَعْنَوِيِّ بِبُعْدِ اللُّزُومِ فِي الْكِنَايَةِ، أَوْ غَرَابَةِ الْعَلاقَةِ فِي المَجَازِ: كَالْكِنَايَةِ بِنُصُوعِ الجَبِينِ عَنْ خُلُوِّ المِلاَّحِ مِنَ الدَّلالَةِ عَلَىٰ الذَّكَاءِ، أَوِ اسْتِعَارَةِ الأَسَدِ لِلرَّجُلِ الأَبْخَرِ لا لِلرَّجُلِ الشُّجَاعِ، عَلَىٰ اعْتِبَارِ أَنَّ الْبَخَرَ[2] وَالشَّجَاعَةَ مِنْ لَوَازِمِ الأَسَدِ – كَانَ ذَلِكَ هُوَ الْعِيَّ الَّذِي يُنَاقِضُ الْبَيَانَ، وَاللَّبْسَ الَّذِي يُنَاهِضُ الْبَلاغَةَ»[3].

---

(١) «البلاغةُ: فنونها وأفْنانها» لفضل حسن عبّاس (١ / ٥٢).

(٢) البَخَر: نَتَنُ الفَم، وبابُهُ فَرِحَ، فَهُوَ أَبْخَرُ، وَهِيَ بَخْرَاءُ، والجمع بُخْرٌ.

(٣) «دفاعٌ عن البَلاغة» (ص١٥٨).

قُلْتُ: وَمِثْلُ هَذَا الصِّنْفِ كَثْرٌ مِنَ الشُّعَرَاءِ الرَّمْزِيِّينَ الْمُتَأَثِّرِينَ بِالثَّقَافَةِ الْوَافِدَةِ: كَشُعَرَاءِ الْحَدَاثَةِ، وَبَعْضِ الْكُتَّابِ الَّذِينَ يُخْفُونَ الْمَعَانِيَ، حَتَّىٰ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، فَإِذَا سَأَلْتَ أَحَدَهُمْ: مَا مَعْنَىٰ قَوْلِكَ فِي شِعْرِكَ أَوْ فِي مَقَالِكَ؟، تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ وَانْتَفَخَ، فَمِثْلُ هَذَا الصِّنْفِ قَدْ كَثُرَتِ الشَّكْوَىٰ مِنْهُمْ، حَتَّىٰ مِنْ نُفُوسِهِمُ الَّتِي هِيَ بَيْنَ ضُلُوعِهِمْ، وَنَعَىٰ حَالَهُمْ كَثِيرٌ مِنَ الْغَيُورِينَ عَلَىٰ اللُّغَةِ.

قَالَ أَحَدُ الْغَيُورِينَ يَنْعَىٰ عَلَىٰ الرَّمْزِيِّينَ رَمْزَهُمُ الْمُغْلَقَ:

لُغَةٌ مُشَوَّهَةٌ وَمَعْنًى حَائِرٌ ... خَلْفَ الْمَجَازِ وَمَنْطِقٌ مُتَعَثِّرُ
وَزَعِيمُهُمْ فِي زَعْمِهِمْ مُتَفَنِّنٌ ... عَجَبًا أَكَانَ الْفَنُّ فِيمَا يُضْمَرُ؟
لا الأَرْضُ تَفْهَمُ مَا يُصَوِّرُهُ لَهَا ... هَذَا الزَّعْمُ، ولا السَّمَاءُ تُفَسِّرُ!

الْعَيْبُ الْخَامِسُ - كَثْرَةُ التَّكْرَارِ:

وَهُوَ أَنْ يَتَكَرَّرَ اللَّفْظُ الْوَاحِدُ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّتَيْنِ، وَذَلِكَ مَعِيبٌ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْبَيَانِ، وَسَوَاءٌ كَانَ هَذَا اللَّفْظُ اسْمًا - ظَاهِرًا أَوْ مُضْمَرًا -، أَوْ فِعْلاً، أَوْ حَرْفًا.

وَمِنَ التَّكْرَارِ قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ:

وَقَلْقَلْتُ بِالْهَمِّ الَّذِي قَلْقَلَ الْحَشَا ... قَلاقِلَ عِيسٍ، كُلُّهُنَّ قَلاقِلُ

وَقَوْلُ رُؤْبَةَ:

إِنِّي - وَأَسْطَارٍ سُطِرْنَ سَطْرًا - ... لَقَائِلٌ: يَا نَضْرُ نَضْرًا نَضْرَا

فَانْظُرْ إِلَىٰ التَّكْرَارِ فِي حُرُوفِ السِّينِ وَالطَّاءِ وَالضَّادِ الَّذِي انْتَزَعَ مِنَ الأَبْيَاتِ حَلاوَتَهَا.

الْعَيْبُ السَّادِسُ - تَتَابُعِ الإِضَافَاتُ مَعَ ثِقَلِهَا عَلَىٰ اللِّسَانِ:

وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الاسمُ مُضَافًا إِضَافَةً مُتَدَاخِلَةً غَالِبًا.

كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

الزَّهْرُ والقَطْرُ فِي رُبَاهَا[١]
مَا بَيْنَ نَظْمٍ وَبَيْنَ نَثْرِ
حَدَائِقُ كَدٌّ كُلُّ رِيحٍ
حَلَّ بِهَا خَيْطُ كُلِّ قَطْرِ

وَمِثَالُ ذَلِكَ - أَيْضًا - قَوْلُ ابْنِ بَابَكَ:

حَمَامَةَ جَرْعًا[٢] حَوْمَةِ[٣] الجَنْدَلِ[٤] اسْجَعِي[٥]
فَأَنْتِ بِمَرْأَىً مِنْ سُعَادَ وَمَسْمَعِ

فَفِيهِ إِضَافَة (حَمَامَةَ) إِلَىٰ (جَرْعَا)، ثُمَّ إِضَافَة (جَرْعا) إِلَىٰ (حَوْمَة)، ثُمَّ إِضَافَةُ (حَوْمَة) إِلَىٰ (الجَنْدَل)؛ فَإِنْ تَدَاخَلَتِ الإِضَافَاتُ، وَلَمْ تُوجِبْ ثِقْلاً عَلَىٰ اللِّسَانِ - فَلا تُخِلُّ بِالْفَصَاحَةِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ - تَعَالَىٰ - : ﴿ **ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا** ﴿٢﴾ ﴾ [مَرْيَم : ٢].

---

(١) الرُّبَا: جمع رُبْوَة - بالتَّثْلِيث - ، وهي ما ارتفع من الأرض.

(٢) الجَرْعاء - بزنة الحمراء - ، وقُصِرَ لضرورة الوزن - : الأرض الرمليّة لا تُنبتُ شيئًا، ولا تُمسكُ ماءً.

(٣) حومة كل شيء - بالفتح - : مُعظمُهُ.

(٤) الجندل - بفتح الدال وقد تكسر - : الحجارة.

(٥) سَجَعت الحمامَةُ - من باب قَطَعَ - : هَدَرَتْ وصَوَّتَت، فهي ساجعةٌ وسَجُوعٌ، والجمع سُجَّعٌ وسَواجعُ. يقول: اطْرَبي يا حمامة أرضٍ قَفْرةٍ سَبِخةٍ - ؛ فإنَّ الحبيبةَ تَراكِ وتسمَعُك.

الأُسْلُوبُ

الأُسْلُوبُ: هُوَ المَعْنَىٰ المَصُوغُ فِي أَلْفَاظٍ مُؤَلَّفَةٍ عَلَىٰ صُورَةٍ تَكُونُ أَقْرَبَ لِنَيْلِ الْغَرَضِ المَقْصُودِ مِنَ الْكَلامِ، وَأَوْقَعَ فِي نُفُوسِ سَامِعِيهِ(١).

وَلَهُ ثَلاثُ صِفَاتٍ:

١ - الجِدَّةُ:

وَهِي اخْتِيَارُ اللَّفْظَةِ، وَطَرَافَةُ الْعِبَارَةِ، فَالْكَاتِبُ لابُدَّ أَنْ تَكُونَ لَهُ شَخْصِيَّتُهُ؛ حَتَّىٰ يَكُونَ كَلامُهُ مُنبَثِقًا مِنْ ذِهْنِهِ لا مِنْ ذَاكِرَتِهِ، وَمِنْ نَفْسِهِ لا مِنَ النَّاسِ.

٢ - الإيجازُ:

وَهُوَ إِجَاعَةُ اللَّفْظِ، وَإِشْبَاعُ المَعْنَىٰ، فَهُوَ مِنْ أَبْرَزِ الصِّفَاتِ المُمَيِّزَةِ لِلأُسْلُوبِ الجَيِّدِ.

٣ - التَّلاؤُمُ:

وَأَمَّا التَّلاؤُمُ فَهُوَ مَا بَيْنَ الجُمَلِ مِنْ تَنْسِيقٍ وَرَوْعَةِ إِيقَاعٍ فِي النُّفُوسِ، وَإِذَا كَانَتِ الصُّورَةُ شَكْلاً فِي الأُسْلُوبِ، فَلَيْسَ ذَلِكَ دَلِيلاً عَلَىٰ إِهْمَالِ المَعْنَىٰ، بَلِ الأَلْفَاظُ - عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ - تَابِعَةٌ لِلْمَعْنَىٰ(٢).

أَقْسَامُ الأُسْلُوبِ:

يَنْقَسِمُ الأُسْلُوبُ إِلَىٰ أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ:

---

(١) انظر «جواهر البلاغة» للهاشميّ (ص٣١)، و«البلاغة الواضحة» لعليّ الجارم، ومصطفىٰ أمين (ص١٢).

(٢) انظر «البلاغة فنونها وأفنانها» للدكتور/ فضل حسن عبَّاس (١/ ٧٠).

١ - الأُسْلُوبُ الْعِلْمِيُّ:

أَهَمُّ مُمَيِّزَاته أَنَّهُ يُخَاطِبُ الْعَقْلَ، وَيُوَضِّحُ الحَقَائِقَ الْعِلْمِيَّةَ بِأَوْضَحِ حُجَّةٍ، وَأَسْطَعِ بُرْهَانٍ، وَلَابُدَّ أَنْ يَبْدُو فيه أَثَرُ الْقُوَّةِ وَالجَمَال، وَقُوَّتُهُ فِي سُطُوعِ بَيَانه، وَرَصَانَةِ حُجَجِه، وَجَمَالُهُ فِي سُهُولَةِ عِبَارَاته، وَسَلَامَةِ الذَّوْقِ فِي اخْتِيَارِ كَلِمَاته، وَحُسْنِ تَقْرِيرِهِ الْمَعْنَىٰ فِي الأَفْهَامِ مِنْ أَقْرَبِ وُجُوهِ الْكَلَامِ.

وَيَحْسُنُ فِي هَذَا الأُسْلُوبِ التَّنَحِّي عَنِ الإِغْلَاقِ(١) وَالإِغْرَاقِ(٢)، إِلاَّ مَا جَاءَ مِنْ ذَلِكَ عَفْوًا، أَمَّا التَّشْبِيهُ الَّذِي يُقْصَدُ بِه تَقْرِيبُ الحَقَائِقِ إِلَىٰ الأَفْهَامِ وَتَوْضِيحُهَا بِذِكْرِ مُمَاثِلِهَا فَهُوَ فِي هَذَا الأُسْلُوبِ حَسَنٌ مَقْبُولٌ.

وَمِثَالٌ عَلَىٰ ذَلِكَ: الْمُتُونُ الْعِلْمِيَّةُ؛ لأَنَّ الْغَرَضَ هُوَ تَوْضِيحُ الحَقِيقَةِ، وَتَوْصِيلُ الْمَعَارِفِ إِلَىٰ الأَذْهَانِ بِعِبَارَةٍ سَهْلَةٍ دَقِيقَةٍ، غَيْرِ مُعْتَمِدَةٍ عَلَىٰ الأَلْفَاظِ الْمُوحِيَةِ وَالخَيَالِ، أَوْ إِثَارَةِ الْعَوَاطِفِ وَالْمَشَاعِرِ.

٢ - الأُسْلُوبُ الأَدَبِيُّ:

الجَمَالُ أَبْرَزُ صِفَاته، وَأَظْهَرُ مُمَيِّزَاته، وَمَنْشَأُ جَمَاله مَا فِيه مِنْ خَيَالٍ رَائِعٍ، وَتَصْوِيرٍ دَقِيقٍ، وَتَلَمُّسٍ لِوُجُوهِ الشَّبَهِ الْبَعِيدَةِ بَيْنَ الأَشْيَاءِ، وَإِلْبَاسِ الْمَعْنَوِيِّ ثَوْبَ الْمَحْسُوسِ، وَإِظْهَارِ الْمَحْسُوسِ فِي صُورَةِ الْمَعْنَوِيِّ.

وَالْغَرَضُ مِنْ هَذَا الأُسْلُوبِ نَقْلُ الشُّعُورِ وَالإِحْسَاسِ إِلَىٰ الآخَرِينَ بِمُخَاطَبَةِ الْعَوَاطِفِ.

---

(١) الإغلاق: هو ما يُوجِبُ حَيْرَةَ السَّامِعِ فِي فَهْمِ الْمَعْنَىٰ لتَرَدُّدِهِ بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ، فَيُصْبِحُ مَثَارًا لِلظُّنُونِ، ومَجَالاً لِلتَّوْجِيهِ والتَّأْوِيلِ.

(٢) إِغْرَاقٌ: هُوَ أَلاَّ يُغْرِقَ صَاحِبُهُ فِي الْكِنَايَةِ، والمَجَازِ، وَمُحَسِّنَاتِ الْبَدِيعِ الَّذِي هُوَ مِنْ خَصَائِصِ الأُسْلُوبِ الأَدَبِيِّ.

وَيَقُومُ عَلَىٰ إِبْرَازِ الْفِكْرَةِ الممْزُوجَةِ بِالْعَوَاطِفِ، وَالنَّسَقِ التَّعْبِيرِيِّ بِأَلْفَاظٍ مُنْتَقَاةٍ، وَالصُّورَةِ وَالأَخْيِلَةِ.

وَيَتَمَيَّزُ بِإِشَاعَةِ الْعَاطِفَةِ الْمُبْرِزَةِ لِلشُّعُورِ وَالإِحْسَاسِ، وَالأَلْفَاظِ الْمُوحِيَةِ، وَالتَّرَادُفِ، وَالتَّكْرَارِ.

وَلَا يُظَنُّ أَنَّ كَثْرَةَ الْمَجَازِ وَالتَّشْبِيهَاتِ وَالأَخْيِلَةِ فِي هَذَا الأُسْلُوبِ تَزِيدُ مِنْ حُسْنِهِ؛ فَإِنَّ التَّكَلُّفَ وَتَعَمُّدَ الصَّنَاعَةِ يُفْسِدُ هَذَا الأُسْلُوبَ، وَيَذْهَبُ بِجَمَالِهِ، وَمَا زَادَ عَنْ حَدِّهِ انْقَلَبَ إِلَىٰ ضِدِّهِ[١].

وَمِنَ السَّهْلِ أَنْ تَعْرِفَ أَنَّ الشِّعْرَ وَالنَّثْرَ الأَدَبِيَّ هُمَا مَوْطِنَا هَذَا الأُسْلُوبِ، فَفِيهِمَا يَزْدَهِرُ، وَفِيهِمَا يَبْلُغُ قِمَّةَ الإِبْدَاعِ وَغَايَةَ الجَمَالِ.

وَإِنَّكَ لَتَلْمِسُ هَذَا الأُسْلُوبَ لَدَىٰ الجَاحِظِ فِي بَيَانِهِ، وَالحَرِيرِيِّ فِي مَقَامَتِهِ، وَالمُتَنَبِّي فِي رَائِعَتِهِ...

٣ - *الأُسْلُوبُ الْعِلْمِيُّ الْمُتَأَدِّبُ:*

وَهُوَ مَا كَانَ مُتَأَلِّفًا مِنَ الأُسْلُوبَيْنِ، فَيُخَاطِبُ الْعَقْلَ وَالْعَاطِفَةَ، وَمِنْ مُمَيِّزَاتِهِ أَنَّهُ يُبْرِزُ الحَقَائِقَ الْعِلْمِيَّةَ فِي أُسْلُوبٍ جَذَّابٍ بَعِيدٍ عَنِ الجَفَافِ الْعِلْمِيِّ، وَذَلِكَ بِالتَّخْفِيفِ مِنَ المُصْطَلَحَاتِ الْعِلْمِيَّةِ، وَاخْتِيَارِ الأَلْفَاظِ الْمُنْتَقَاةِ الْمُمْتَزِجَةِ بِالْعَاطِفَةِ، الْمُبْرِزَةِ لِلشُّعُورِ وَالإِحْسَاسِ.

فَيُكْسِبُ الْكَلَامَ وُضُوحًا وَإِشْرَاقًا، يَنْسَابُ إِلَىٰ سَمْعِ السَّامِعِ وَقَلْبِهِ انْسِيَابَ السَّيْلِ إِلَىٰ الحُدُورَةِ[٢]، فَالخَلَايَا لَهَا أَذَانٌ تَعِي حُلَلَ الْبَيَانِ، وَتَسْتَمِعُ بِحَلَاوَةِ

---

(١) انظر «جواهر البلاغة» لأحمد الهاشميِّ (ص٣٢)، وانظر - أيضًا - كتابي «تُحْفَةُ الخطيب» ففيه ما يَشْفِي ويَكْفِي - إن شاء الله -.

(٢) الحُدُورة - بضمِّ الحاء وفتحها -: المكان المُنْحَدر.

الإِيقَاعِ، فَمَا أَشْبَهَ هَذَا الأُسْلُوبَ بِخَلِيَّةِ نَحْلٍ، وَقَارِئَهُ بِالنَّحْلَةِ الْمُنْتَقِلَةِ بَيْنَ الزُّهُورِ الْعَطِرَةِ، وَالحَدَائِقِ النَّضِرَةِ!.

وَهَذَا الأُسْلُوبُ هُوَ الْغَالِبُ، تَجِدُهُ فِي رِيَاضِ الْكِتَابِ، وَالسُّنَّةِ، وَآثَارِ الصَّحَابَةِ، وَأَقْوَالِ السَّلَفِ: كَالحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، وَمُؤَلَّفَاتِ الشَّافِعِيِّ، وَابْنِ الجَوْزِيِّ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ الْقَيِّمِ، وَالذَّهَبِيِّ، وَغَيْرِهِمْ كَثِيرٌ...

٤ - الأُسْلُوبُ الخَطَابِيُّ:

هُنَا تَبْرُزُ قُوَّةُ المَعَانِي وَالأَلْفَاظِ، وَقُوَّةُ الحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ، وَقُوَّةُ الْعَقْلِ الخَصِيبِ، وَهُنَا يَتَحَدَّثُ الخَطِيبُ إِلَىٰ إِرَادَةِ سَامِعِيهِ لإِثَارَةِ عَزَائِمِهِمْ، وَاسْتِنْهَاضِ هِمَمِهِمْ، وَلجَمَالِ هَذَا الأُسْلُوبِ وَوُضُوحِهِ شَأْنٌ كَبِيرٌ فِي تَأْثِيرِهِ وَوُصُولِهِ إِلَىٰ قَرَارَةِ النُّفُوسِ، وَمِمَّا يَزِيدُ فِي تَأْثِيرِ هَذَا الأُسْلُوبِ مَنْزِلَةُ الخَطِيبِ فِي نُفُوسِ سَامِعِيهِ وَقُوَّةُ عَارِضَتِهِ، وَسُطُوعُ حُجَّتِهِ، وَنَبَرَاتُ صَوْتِهِ، وَحُسْنُ إِلْقَائِهِ، وَمُحْكَمُ إِشَارَتِهِ.

وَمِنْ أَظْهَرِ مُمَيِّزَاتِ هَذَا الأُسْلُوبِ التَّكْرَارُ، وَاسْتِعْمَالُ المُتَرَادِفَاتِ، وَضَرْبُ الأَمْثَالِ، وَاخْتِيَارُ الْكَلِمَاتِ الجَزْلَةِ[١] ذَاتِ الرَّنِينِ، وَيَحْسُنُ فِيهِ أَنْ تَتَعَاقَبَ ضُرُوبُ التَّعْبِيرِ مِنْ إِخْبَارٍ إِلَىٰ اسْتِفْهَامٍ، إِلَىٰ تَعَجُّبٍ، إِلَىٰ اسْتِنْكَارٍ، وَأَنْ تَكُونَ مَوَاطِنُ الْوَقْفِ فِيهِ كَافِيَةً شَافِيَةً، وَاضِحَةً قَوِيَّةً.

وَمِنْ خَيْرِ الأَمْثِلَةِ لِهَذَا الأُسْلُوبِ خُطْبَةُ النَّبِيِّ - ﷺ - عَقِبَ غَزْوَةِ حُنَيْنٍ، حِينَمَا بَلَغَهُ أَنَّهُمْ سَاخِطُونَ عَلَىٰ قِلَّةِ نَصِيبِهِمْ مِنَ الْغَنَائِمِ.

فَقَالَ - بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ - :

---

(١) الكلماتُ الجزلةُ: القويةُ ضدَّ الركيكة.

«يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ[١]، مَا قَالَةٌ[٢] بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ، وَجِدَةٌ[٣] وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ؟، أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ، وَعَالَةً[٤] فَأَغْنَاكُمُ اللهُ، وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟!».

قَالُوا: بَلَىٰ[٥]، اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ[٦] وَأَفْضَلُ.

ثُمَّ قَالَ: **«أَلا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ؟»**[٧].

---

(١) يا مَعْشَر الأَنْصار: تخصيصُ الخطاب أساسٌ مُهِمٌّ مِنَ الأُسُسِ الَّتي يمتازُ بها أسلوبُ الخَطابَة عن غيره مِنْ أساليب الأدب.

والخطبَةُ: تَحْفِلُ بتذكيرِ الأنصارِ بأَنَّهُمْ هُمُ المُخاطبون؛ فابتدأتْ بعبارة «يا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ»، ثُمَّ تكَرَّرَ هَذَا التَّعْبيرُ، وتكَرَّرَ ذِكْرُ الأَنْصارِ مرَّاتٍ عَديدةً، وكَانَ الخُطبَةُ تُراعِي أَنَّهُمْ كُلَّمَا اسْتَغْرَقُوا في تَعَمُّقِ المَعَاني وَمُتَابَعَةِ الخُطْبَةِ، أَعَادَهُمْ هَذَا النِّدَاءُ «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ» إِلَىٰ التَّنَبُّهِ وَالتَّيَقُّظِ، فَضْلاً عَنْ إِشْعَارِهِمْ بِأَنَّهُمُ المُخَاطَبونَ والمَعْنِيُّونَ. «البَلاغَةُ النَّبَوِيَّةُ وَأَثَرُهَا في النُّفُوسِ» بَحْثٌ أَعَدَّهُ حسن جاد في مجلَّة البُحُوث عدد (٥)، (ص١٤٩).

(٢) قَالَة: مَقَالَة يَعْنِي كَلامًا.

(٣) الجِدَةَ - بزِنَة العِدَة -: السُّخْط والغَضَب، يُقَالُ: وَجَدَ عَلَيْهِ - بِالْفَتْحِ - يَجِدُ - بالكَسْرِ والضَّمِّ - وَجْدًا، وَجِدَةً، ومَوْجِدَةً - بكَسْرِ الجيم -: إِذَا غَضِبَ.

(٤) عَالَة: فُقَرَاء، جمعُ عَائِلٍ، وَيُجْمَعُ - أَيْضًا - عَلَىٰ عُيَّلٍ، وَعَيْلَىٰ - بِزِنَةِ سَكْرَىٰ -.

(٥) بَلَىٰ: جَوابٌ بِمَعْنَىٰ نَعَمْ فِي جَوَابِ الاسْتِفْهَامِ المَنْفِيِّ.

(٦) أَمَنُّ: أَكْثَرُ مَنًّا، وَالمَنُّ: الإِنْعَامُ، وَبَابُهُ رَدَّ.

(٧) الأَسْئِلَةُ مِنَ الأُسُسِ الَّتِي يَمْتَازُ بِهَا أُسْلُوبُ الخَطَابَةِ، فَإِنَّ تَوجِيهَ الأَسْئِلَةِ إِلَىٰ السَّامِعِينَ يُحَقِّقُ لِلْخَطِيبِ عِدَّةَ أَهْدَافٍ، فَمِنْهَا:

أَنَّهَا تُوقِظُ عُقُولَ السَّامِعِينَ، وَتُثِيرُ حَمَاسَهُمْ وَاهْتِمَامَهُمْ لِلْبَحْثِ عَنْ إِجَابَةٍ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَنْفُسِهِمْ، وَهَذِهِ الْيَقَظَةُ يَحْتَاجُهَا الخَطِيبُ؛ لِيَعُوا كَلامَهُ وَأَهْدَافَهُ، وَالْوَاقِعُ أَنَّ الْخَطِيبَ لا يَنْتَظِرُ مِنَ السَّامِعِينَ الإِجَابَةَ، وَلا يَتَوَقَّعُهَا بَلْ هُوَ الَّذِي سَيُجِيبُ عَنْ أَسْئِلَتِهِ؛ لأَنَّهَا أَسْئِلَةٌ هَادِفَةٌ، صَاغَهَا بِطَرِيقَةٍ مُعَيَّنَةٍ فِي تَسَلْسُلٍ وَتَرْتِيبٍ، يُؤَدِّي بِهَا عَادَةً إِلَىٰ إِجَابَةٍ تِلْقَائِيَّةٍ يُرِيدُهَا الخَطِيبُ، وَالخُطْبَةُ حَافِلَةٌ بِالأَسْئِلَةِ الْعَدِيدَةِ المُتَنَوِّعَةِ، بَلْ تَكَادُ تَكُونُ الأَسْئِلَةُ أَبْرَزَ مَا فِيهَا، فَقَدْ اسْتَهَلَّهَا النَّبِيُّ - ﷺ -: «مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ؟»، ثُمَّ يُوَاصِلُ الأَسْئِلَةَ: «أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ؟»، ثُمَّ: «أَلا تُجِيبُونِي يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ؟»، وهَكَذَا. انظر «البَلاغة النَّبويَّة» (٥ / ١٥٧).

قَالُوا: بِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟!، للهِ وَرَسُولِهِ المَنُّ وَالْفَضْلُ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -:

«أَمَا وَاللهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ - فَلَصَدَقْتُمْ وَلَصُدِّقْتُمْ -: أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلاً فَآسَيْنَاكَ[١]، أَوَجَدْتُمْ - يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ - فِي أَنْفُسِكُمْ فِي لُعَاعَةٍ[٢] مِنَ الدُّنْيَا، تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا؛ لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ[٣] إِلَىٰ إِسْلامِكُمْ؟!.

أَلاَ تَرْضَوْنَ - يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ - أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُوا بِرَسُولِ اللهِ إِلَىٰ رِحَالِكُمْ[٤]؟!.

فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلاَ الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَءًا مِنَ الأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا، وَسَلَكَتِ الأَنْصَارُ شِعْبًا[٥]، لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ!».

فَبَكَىٰ الأَنْصَارُ، حَتَّىٰ أَخْضَلُوا[٦] لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللهِ قَسْمًا[٧] وَحَظًّا[٨][٩].

---

(١) عائلاً: فقيرًا مُحْتَاجًا، وآسيناكَ: بِمَعْنَىٰ سَاعَدْنَاكَ.

(٢) اللُّعَاعَة - بضَمِّ اللاَّمِ -: النَّبَاتُ الضَّعِيف الصَّغِير، والمُرَادُ الشَّيْءُ اليَسِيرُ، وَفِي لُعَاعَةٍ: أَيْ بِسَبَبِ لُعَاعَةٍ.

(٣) وَكَلْتُكُمْ: تَرَكْتُكُمْ.

(٤) رِحَالُكُمْ: جَمْعُ رَحْلٍ - بِالْفَتْحِ -، وَهُوَ مَرْكَبٌ لِلْبَعِيرِ، ويُجْمَعُ - أَيْضًا - عَلَىٰ أَرْحُلٍ.

(٥) الشِّعْب - بكسر الشين -: الطَّرِيق في الجبل، والجمع شِعَاب.

(٦) أخضلُوا: يعني بَلَّلوا بالدُّمُوعِ.

(٧) القَسْمُ - بالفتح -: العَطَاء، ولا جمْعَ لَهُ.

(٨) الحَظُّ: المرادُ بِهِ النَّصِيب من الخير والفَضْلِ.

(٩) أخرجه البخاريُّ (٤٣٩٠) عن عبد الله بن زيد، و(٤٣٣١)، و(٤٣٣٧)، عن أنس، ومسلم (١٠٥٩) عن أنس، و(١٠٦١)، عن عبد الله بن زيد.

فَانْظُرْ – أَخِي فِي اللهِ – كَيْفَ تَدَرَّجَ النَّبِيُّ – ﷺ – فِي إِثَارَةِ شُعُورِ الأَنْصَارِ، حَتَّىٰ وَصَلَ إِلَىٰ الْقِمَّةِ.

فَمِنَ الْوَاضِحِ فِي الْخُطْبَةِ أَنَّهَا مُقَسَّمَةٌ إِلَىٰ عَنَاصِرَ مُحَدَّدَةٍ مُتَمَيِّزَةٍ، وَهَذِهِ الْعَنَاصِرُ تَتَدَرَّجُ إِلَىٰ الْغَرَضِ الْمَنْشُودِ فِي تَرْتِيبٍ وَتَنْسِيقٍ وَاضِحَيْنِ، وَنَسْتَطِيعُ الإِلْمَامَ السَّرِيعَ بِهَذِهِ الْعَنَاصِرِ كَمَا يَأْتِي[1]:

١ – فِي الْمُسْتَوَىٰ الْعَالِي مِنَ الْخَطَابَةِ لاَبُدَّ لِلْخَطِيبِ مِنْ (مُقَدِّمَةٍ)، يَجْعَلُهَا مُنْطَلَقًا وَمَدْخَلاً إِلَىٰ مَوْضُوعِهِ، وَتَخْتَلِفُ هَذِهِ الْمُقَدِّمَةُ مِنْ خُطْبَةٍ إِلَىٰ خُطْبَةٍ بِاخْتِلاَفِ الْمَوْضُوعِ وَالْمُنَاسَبَةِ وَالظُّرُوفِ، وَلَكِنْ لاَبُدَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ مُثِيرَةً لِلانْتِبَاهِ، وَمَوْضِعَ تَسْلِيمِ السَّامِعِينَ، بِحَيْثُ يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ أَسَاسًا لِمُتَابَعَةِ مَوْضُوعِ الْخُطْبَةِ حَتَّىٰ النِّهَايَةِ، وَمَقْدِرَةُ الْخَطِيبِ وَبَلاَغَتُهُ هِيَ الَّتِي تُحَدِّدُ طَابِعَ هَذَا التَّمْهِيدِ وَنَوْعِهِ، وَلَكِنِ التَّمْهِيدِ يَكُونُ – فِي أَغْلَبِ الأَحْيَانِ – مِقْيَاسًا أَوْ سَبَبًا أَسَاسِيًّا لِمَدَىٰ نَجَاحِ الْخُطْبَةِ أَوْ فَشَلِهَا، وَالنَّبِيُّ – ﷺ – بَدَأَ خُطْبَتَهُ بِهَذَا التَّمْهِيدِ الْمُوجَزِ الْمُرَكَّزِ، الَّذِي يَمْلأُ السَّامِعِينَ اقْتِنَاعًا وَتَسْلِيمًا، فَهُوَ يُذَكِّرُهُمْ فِي صُورَةِ سُؤَالٍ: «أَلَمْ آتِكُمْ ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمُ اللهُ؟!».

فَهِيَ حَقَائِقُ مُسَلَّمَةٌ، يُذَكِّرُهُمْ بِهَا الرَّسُولُ – ﷺ –؛ لِيَلْفِتَ نَظَرَهُمْ مُقَدِّمًا إِلَىٰ أَنَّهُمْ مَهْمَا كَانَ فَضْلُهُمْ، فَإِنَّ فَضْلَهُ عَلَيْهِمْ أَعْظَمُ وَأَسْبَقُ.

بِهَذَا التَّمْهِيدِ قَدْ بَدَأَتِ النَّظَرِ لِلْمَوْضُوعِ نَظْرَةً تَخْتَلِفُ عَنْ نَظْرَتِهَا قَبْلَهُ، وَبِهَذَا يَكُونُ قَدْ غَيَّرَ مَجْرَىٰ تَفْكِيرِهِمْ، وَفِي جَذْبِهِمْ إِلَىٰ مَوْضُوعِ الْخُطْبَةِ بِعَقْلٍ مُقْنِعٍ مُقَدَّمًا، وَبِدُونِ هَذَا التَّمْهِيدِ يَصْعُبُ الْوُصُولُ إِلَىٰ إِقْنَاعِ بَعْضِ السَّامِعِينَ.

---

(١) انظر «البلاغة النَّبويَّة وأثرها في النفوس» لحسن جاد، بحث في مجلّة البحوث عدد (٥ / ١٥١).

٢ – وَحَتَّىٰ يَقْتَلِعَ النَّبِيُّ – ﷺ – كُلَّ جُذُورِ الْفِتْنَةِ؛ فَقَدْ صَوَّرَهُمْ فِي صُورَةِ الْخَصْمِ الَّذِي يُدَافِعُ عَنْ حَقِّهِ، وَلِحِكْمَةِ الرَّسُولِ – ﷺ – الْبَالِغَةِ السُّمُوِّ تَجْعَلُهُ يَنُوبُ عَنْهُمْ فِي الْخُصُومَةِ مُدَافِعًا عَنْهُمْ، وَعَارِضًا وِجْهَةَ نَظَرِهِمْ كَامِلَةً، قَالَ: «**أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ؟**».

وَلَكِنَّهُمْ أَبَوْا أَنْ يَقِفُوا مَعَ الرَّسُولِ – ﷺ – مَوْقِفَ الخَصْمِ، وَإِذَا كُلُّ رَدِّهِمْ: «بِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟!، للهِ وَرَسُولِهِ المَنُّ وَالْفَضْلُ».

وَالرَّسُولُ – ﷺ – يَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ إِجَابَةُ الإِيمَانِ.

ثُمَّ يَبْقَىٰ مَا يُزِيلُ مَا فِي النَّفْسِ؛ وَلِذَلِكَ نَابَ هُوَ عَنْهُمْ بِأَبْلَغِ مَا كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَتَمَثَّلُوا بِهِ هُمْ، وَلَنَا أَنْ نَتَصَوَّرَ الأَنْصَارَ قَدْ أَخَذَتْ مِنْهُمُ الدَّهْشَةُ، وَبَلَغَ مِنْهُمُ الذُّهُولُ، فَهُمْ لَوْ وَقَفُوا مِنَ الرَّسُولِ – ﷺ – مَوْقِفَ الخُصُومَةِ، فَلَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذِهِ الحُجَجِ، وَهُنَاكَ أَمْرٌ يَأْخُذُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعُقُولِهِمْ كُلَّ أَقْطَارِهَا إِعْجَابًا بِخُلُقِ الرَّسُولِ – ﷺ – وَحُبًّا لَهُ.

وَمِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – بِهَذِهِ الْعَنَاصِرِ قَدْ جَعَلَ نُفُوسَ الأَنْصَارِ وَقُلُوبَهُمْ فِي أَقْصَىٰ حَالَاتِ التَّهَيُّؤِ وَالانْشِرَاحِ لِكُلِّ مَا يَقُولُ، فَقَدْ أَذْهَبَ كُلَّ مَا فِيهَا مِنْ مَوْجِدَةٍ.

٣ – وَتَأْتِي – بَعْدَ ذَلِكَ – مُنَاقَشَةُ الْمَوْضُوعِ الأَسَاسِيِّ لِلْخُطْبَةِ، وَقَدْ أَصْبَحَتْ نُفُوسُهُمْ بِالْعُنْصُرِ السَّابِقِ مُسْتَعِدَّةً كُلَّ الاسْتِعْدَادِ لِكُلِّ مَا يَقُولُهُ الرَّسُولُ – ﷺ –.

غَضِبَ الأَنْصَارُ لِقِلَّةِ نَصِيبِهِمْ مِنَ الْغَنَائِمِ، وَقَدْ صَوَّرَ النَّبِيُّ – ﷺ – هَذَا الجَانِبَ بِصُورَةٍ أَدَبِيَّةٍ، تُجَسِّدُهُ فِي النُّفُوسِ، حَيْثُ شَبَّهَ كُلَّ هَذِهِ الْغَنَائِمِ بِالنَّبَاتِ الصَّغِيرِ (وَهُوَ اللُّعَاعَةُ)، مُشِيرًا إِلَىٰ أَنَّ مَتَاعَ الدُّنْيَا كُلَّهُ تَافِهٌ.

ثُمَّ بَيَّنَ الحِكْمَةَ مِنْ إِيثَارِ بَعْضِ الْقَبَائِلِ.

ثُمَّ يَحْسِمُ هَذَا المَعْنَىٰ بِأُسْلُوبٍ لا تَعْرِفُ الخَطَابَةُ أَشَدَّ مِنْهُ وَقْعًا فِي النُّفُوسِ، وَأَبْلَغَ مِنْهُ تَغَلْغُلاً فِي المَشَاعِرِ، حَيْثُ يَقُولُ فِي صُورَةِ السُّؤَالِ الَّذِي يُجَسِّدُ هَذَا المَعْنَىٰ فِي نُفُوسِهِمْ: «**أَلاَ تَرْضَوْنَ - يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ - أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُوا بِرَسُولِ اللهِ إِلَىٰ رِحَالِكُمْ؟!**».

وَبِهَذَا تَكُونُ الخُطْبَةُ قَدْ قَلَبَتْ كِيَانَ تَفْكِيرِ الأَنْصَارِ.

ثُمَّ يُؤَكِّدُ لَهُمْ بِأَكْثَرَ مِنْ صُورَةٍ أَنَّهُ لَمْ يُغَيِّرْ رَأْيَهُ فِيهِمْ، بَلْ يَكْشِفُ لَهُمْ عَنْ جَوَانِبَ حُبِّهِ لَهُمْ؛ لَعَلَّهُ لَمْ يَكْشِفْهَا لَهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ بِهَذِهِ الصُّورَةِ.

فَيَقُولُ لَهُمْ: «**فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلاَ الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَءًا مِنَ الأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا، وَسَلَكَتِ الأَنْصَارُ شِعْبًا، لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ**».

فَأَيُّ خَيَالٍ فِي الأَمَانِي وَالأَحْلاَمِ رَاوَدَ نُفُوسَهُمْ أَعْظَمُ مِنْ أَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا فِي طَرِيقٍ، وَالنَّاسُ جَمِيعًا فِي طَرِيقٍ آخَرَ، فَالنَّبِيُّ - ﷺ - يَتْرُكُ طَرِيقَ النَّاسِ جَمِيعًا، وَيَخْتَارُ طَرِيقَهُمْ؟!.

وَتُرَاعِي الخُطْبَةُ أَبْعَدَ جَوَانِبَ المَوْقِفِ وَاحْتِمَالاتِهِ فِي كَسْبِ الْقُلُوبِ، حَيْثُ تُرَاعِي جِيلاً قَادِمًا مِنَ الأَنْصَارِ، لَمْ يُوجَدْ بَعْدُ، فَيَقُولُ لَهُمْ - ﷺ - : «**اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ!**»؛ وَلِهَذَا كَانَ أَبْلَغَ مَا أَجَابَ بِهِ الأَنْصَارُ النَّبِيَّ - ﷺ - هُوَ دُمُوعَهُمُ الْغَزِيرَةَ، الَّتِي تَدَفَّقَتْ مِنْ قُلُوبٍ مَلأَهَا الحُبُّ وَالإِيمَانُ، وَهَزَّهَا النَّدَمُ وَالتَّأَثُّرُ، وَإِذَا هَذِهِ الدُّمُوعُ تَظَلُّ تَنْسَكِبُ، حَتَّىٰ تُبَلِّلَ اللِّحَىٰ، ثُمَّ يَقُولُونَ: «رَضِينَا بِرَسُولِ اللهِ قَسْمًا وَحَظًّا».

وَأَنْتَ تُلاحِظُ - أَخِي فِي اللهِ - أَنَّ الخُطْبَةَ اشْتَمَلَتْ عَلَىٰ أُمُورٍ، فَمِنْهَا:

تَخْصِيصُ خِطَابِ الأَسْئِلَة، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ، وَاشْتَمَلَتْ - أَيْضًا - عَلَىٰ التَّفْرِيغِ النَّفْسِيِّ، فِي أَهَمِّ مَا يُثِيرُ نُفُوسَهُمْ.

وَاشْتَمَلَتْ عَلَىٰ الشُّمُولِ.

وَاشْتَمَلَتْ عَلَىٰ الإِقْنَاعِ، فَلَمْ تَتْرُكْ مَجَالاً لِلتَّرَدُّدِ.

■ وَتَمَيَّزَتْ بِمَزَايَا عَدِيدَةٍ، فَمِنْهَا : الإِيجَازُ:

فَمِنَ الْوَاضِحِ فِي الْخُطْبَةِ هَذَا الإِيجَازُ الْمُسْتَوْعَبُ، فَإِنَّنَا لَوْ تَأَمَّلْنَا لَوَجَدْنَاهَا تُعْرِضُ مُجْمَلاً لِتَارِيخِ الإِسْلامِ فِي مَكَّةَ وَفِي الْمَدِينَةِ، خِلالَ حَيَاةِ النَّبِيِّ - ﷺ - ، ثُمَّ جَوَانِبَ مِنَ الْخُلُقِ الْعَظِيمِ، الَّذِي تَحَلَّىٰ بِهِ - ﷺ -، وَمِنْ آثَارِهِ هَذَا الْوَفَاءُ الْعَظِيمُ الَّذِي يَحْمِلُهُ لِلأَنْصَارِ، وَكُلُّ ذَلِكَ تُعْرِضُهُ الْخُطْبَةُ وَاضِحًا مُفَصَّلاً فِي هَذَا الإِيجَازِ الْبَلِيغِ.

■ وَتَمَيَّزَتْ - أَيْضًا - بِتَحْدِيدِ الْعَنَاصِرِ:

وَمِنَ الْوَاضِحِ فِي الْخُطْبَةِ تَحْدِيدُ عَنَاصِرِهَا، وَعَدَمُ تَدَاخُلِ هَذِهِ الْعَنَاصِرِ، أَوْ تَكْرَارِ شَيْءٍ مِنْهَا، وَهَذَا التَّمَايُزُ بَيْنَ الْعَنَاصِرِ يُعِينُ السَّامِعَ عَلَىٰ حُسْنِ الاسْتِيعَابِ، وَيَجْعَلُ الْمَعَانِيَ بَارِزَةً وَاضِحَةً مُؤَثِّرَةً.

■ وَتَمَيَّزَتْ بِتَجْسِيدِ الْمَعَانِي:

وَمِنْ أَهَمِّ مَا يَتَمَيَّزُ بِهِ الطَّابِعُ الأَدَبِيُّ لِلْخُطْبَةِ تَصْوِيرُهَا لِلْمَعَانِي فِي قَوَالِبَ، تَجْعَلُهَا مُجَسَّدَةً فِي ذِهْنِ السَّامِعِ، وَكَأَنَّهَا حِينَئِذٍ لَيْسَتْ مَعَانِيَ فَحَسْبُ، وَإِنَّمَا شُخُوصٌ مَاثِلَةٌ، أَوْ مَنَاظِرُ مُحَدَّدَةٌ مَرْئِيَّةٌ.

وَمِنْ ذَلِكَ حَدِيثُهُ عَنِ الْغَنَائِمِ الَّتِي أَثَارَتِ الْمَوْجِدَةَ فِي نُفُوسِهِمْ، فَلَمْ يَذْكُرْهَا - قَطُّ - حِينَئِذٍ بِأَنَّهَا غَنَائِمُ أَوْ مَالٌ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا كَانَ كُلُّ حَدِيثِهِ

عَنْهَا بِأَنَّهَا لُعَاعَةٌ مِنَ الدُّنْيَا، وَالسَّامِعُونَ يَعْرِفُونَ أَنَّ اللُّعَاعَةَ – بِضَمِّ اللاَّمِ – نَبَاتٌ ضَعِيفٌ صَغِيرٌ، فَتُمْحَىٰ مِنْ أَذْهَانِهِمْ صُورَةُ الْغَنَائِمِ بِبَرِيقِهَا وَإِغْرَائِهَا، وَلا يَبْقَىٰ فِيهَا إِلاَّ صُورَةُ هَذَا النَّبَاتِ الضَّعِيفِ، الَّذِي لا يَسْتَحِقُّ التَّنَافُسَ عَلَيْهِ.

وَفِي تَجْسِيدِ الْمَعَانِي فِي الْخُطْبَةِ الْمُقَارَنَةُ بَيْنَ نَصِيبِ الأَنْصَارِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ، وَالْمُقَارَنَةُ حَقِيقَةٌ وَاقِعِيَّةٌ، وَلَكِنِ الطَّرِيفُ الْمُثِيرُ هُوَ تَصْوِيرُهَا، فَقَدْ صَوَّرَ النَّبِيُّ – ﷺ – الأَنْصَارَ فِي جَانِبٍ، وَالنَّاسَ فِي جَانِبٍ، وَقَدْ أَخَذُوا جَمِيعًا أَنْصِبَتَهُمْ، فَأَمَّا الأَنْصَارُ فَكَانَ نَصِيبُهُمْ شَخْصَ النَّبِيِّ – ﷺ – نَفْسِهِ، فَأَخَذُوهُ وَرَجَعُوا بِهِ إِلَىٰ رِحَالِهِمْ.

وَأَمَّا أَنْصِبَةُ النَّاسِ فَكَانَتْ شِيَاهًا وَبُعْرَانًا، هَذَا يَعُودُ إِلَىٰ رَحْلِهِ بِشَاةٍ، وَذَلِكَ يَعُودُ بِبَعِيرٍ، وَلْنَتَأَمَّلْ أَيَّ رَوْعَةٍ بَيَانِيَّةٍ، وَأَيَّ تَأْثِيرٍ عَاطِفِيٍّ تُثِيرُ هَذِهِ الْمُقَارَنَةُ فِي نُفُوسِ الأَنْصَارِ، حِينَ يَتَصَوَّرُونَ مُجَرَّدَ تَصَوُّرِ هَذِهِ الْمُقَابَلَةِ بَيْنَ نَصِيبِهِمُ الْعَظِيمِ، وَتَفَاهَةِ أَيِّ نَصِيبٍ آخَرَ مَهْمَا عَظُمَ؟!.

وَمِنْ تَجْسِيدِ الْمَعَانِي تَعْبِيرُهُ – ﷺ – عَنْ مَيْلِهِ لِلأَنْصَارِ، وَإِيثَارِهِ لِصُحْبَتِهِمْ عَلَىٰ صُحْبَةِ سَائِرِ النَّاسِ.

فَقَدْ جَسَّدَتِ الْخُطْبَةُ صُورَةً أُخْرَىٰ مِنْ صُوَرِ الْمُقَارَنَةِ بَيْنَ الأَنْصَارِ وَغَيْرِهِمُ افْتِرَاضًا، فَالأَنْصَارُ وَحْدَهُمْ فِي طَرِيقٍ، وَالنَّاسُ جَمِيعًا يَسْلُكُونَ طَرِيقًا آخَرَ، وَإِذَا النَّبِيُّ – ﷺ – يُؤْثِرُ طَرِيقَ الأَنْصَارِ عَلَىٰ كُلِّ طَرِيقٍ، وَهَذِهِ مُقَابَلَةٌ أُخْرَىٰ، تَرْتَسِمُ مُجَسَّمَةً فِي نُفُوسِ الأَنْصَارِ، حِينَ يَتَمَثَّلُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي طَرِيقٍ خَاصٍّ بِهِمْ، وَقَدِ انْحَازَ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ – ﷺ –، وَالنَّاسُ جَمِيعًا يَتَمَنَّوْنَ مَا حَظِيَ بِهِ الأَنْصَارُ.

■ **وَالخُطْبَةُ مَلِيئَةٌ بِالأَسَالِيبِ البَلاغِيَّةِ، وَالصُّوَرِ الْفَنِّيَّةِ الرَّائِعَةِ:**

لاحظ الاسْتِفْهَامَ فِي «**أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالاً**... إلخ» وَغَرَضَهُ التَّقْرِيرِيَّ. وَلاحظ التَّوَافُقَ فِي تَقْسِيمِ الجُمَلِ، ومَا فِيهَا مِنْ مُقَابَلاتٍ «أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالاً فَهَدَاكُمُ اللهُ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ... إلخ».

وَكَيْفَ أَسْنَدَ الْهِدَايَةَ وَالْغِنَىٰ وَتَأَلُّفَ الْقُلُوبِ إِلَىٰ اللهِ، مَعَ أَنَّهُ يُبَيِّنُ مَوْقِفَهُ مِنْهُمْ، إِنَّهُ يُشِيرُ بِهَا إِلَىٰ أَنَّ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ، وَأَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ، وَلَكِنَّهُ يَتَصَرَّفُ بِإِلْهَامٍ مِنْهُ، وَاسْتِهْدَافٍ لِرِضَاهُ.

وَفِي الخُطْبَةِ مِنْ أَسَالِيبِ التَّأْكِيدِ اللازِمَةِ لِلإِقْنَاعِ، مِثْلُ: «**أَمَا وَاللهِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ**...».

وَفِي التَّعْبِيرِ بِلَفْظِ «مَعْشَرَ» فِي «**يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ**» اسْتِمَالَةٌ لَهُمْ، وَإِشْعَارٌ بِأَنَّهُمْ مَعْشَرُهُ وَهُوَ مِنْهُمْ.

وَفِي «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ**» كِنَايَةٌ عَنِ اللهِ.

أَهَمِّيَّةُ عِلْمِ الْبَلاغَةِ

أي أَخي، قَدْ قِيلَ : إِنَّ الافْتِنَانَ في التَّعْبِيرِ لا يَتَوَقَّفُ عَلَىٰ دَرْسِ قَوَاعِدِ الْبَلاغَةِ، وَإِنَّمَا يُصْبِحُ المَرْءُ كَاتِبًا مُجِيداً، أَوْ مُؤَلِّفًا مُبْدِعًا، أَوْ شَاعِراً مَطْبُوعًا(١)، أَوْ خَطِيبًا مِصْقَعًا(٢) – بِكَثْرَةِ الْقِرَاءَةِ فِي كُتُبِ الأَدَبِ، وَحِفْظِ آثَارِ الْعَرَبِ، وَبِنَقْدِ الشِّعْرِ وَتَفَهُّمِهِ، وَدِرَاسَةِ النَّثْرِ الْفَنِّيِّ، وَتَذَوُّقِ أَسْرَارِهِ، أَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ: حِفْظُ كِتَابِ اللهِ إِنْ أَمْكَنَ الحِفْظُ؛ فَإِنَّهُ يَجْمَعُ لَكَ ذَلِكَ كُلَّهُ(٣).

فَإِذَا كَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ، فَمَا فَائِدَةُ هَذِهِ الرِّسَالَةِ؟.

وَمَا مِنْ شَكٍّ – أَخي – أَنَّ فَائِدَتَهَا تَكْمُنُ فِي الإِلْمَامِ بِقَوَاعِدِ هَذَا الْفَنِّ، بِحَيْثُ تَنْطَلِقُ مِنْ قَوَاعِدَ رَاسِخَةٍ، وَأُسُسٍ ثَابِتَةٍ، لا تَقْدَحُ فِي نَفْسِكَ شَكًّا.

أَلا تَرَىٰ أَنَّ الكُوفِيِّينَ حِينَ اعْتَمَدُوا عَلَىٰ الْقِيَاسِ فِي مَذْهَبِهِمْ، كَثُرَ لَدَيْهِمُ الخَطَأُ، وَلَمَّا اعْتَمَدَ الْبَصْرِيُّونَ عَلَىٰ قَوَاعِدَ، قَلَّ الخَطَأُ لَدَيْهِمْ؟!.

فَلا تَقْعُدْ بِكَ هِمَّتُكَ عَنْ إِدْرَاكِ قَوَاعِدِ هَذَا الْعِلْمِ، مَهْمَا أُوتِيتَ مِنَ الْبَلاغَةِ؛ فَإِنَّ أَكْثَرَ الْبُلَغَاءِ – كَمَا يَقُولُ الرَّازِي فِي كِتَابِهِ «نِهَايَةُ الإِيجَازِ» – : «لا يَكَادُونَ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلاغَةِ»(٤). فَإِذَا كَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ، فَكَيْفَ بِمَنْ دُونَهُمْ؟!.

---

(١) طُبِعَ عَلَىٰ الشِّعْرِ – بِالضَّمِّ – فَهُوَ مَطْبُوعٌ: جُبِلَ.

(٢) الْمِصْقَعُ – بِزِنَةِ المِنْبَرِ – : البليغُ، والجمع المَصَاقِعُ.

(٣) انظر «البلاغةُ الوَاضِحَةُ» (ص١٣٦) بتصرُّفٍ يسيرٍ.

(٤) قَالَ أَبُو هِلالٍ العسكَرِيُّ في كتابه «الصناعتين»: «الفصاحةُ والبلاغةُ تَرْجِعَانِ إِلَىٰ معنىً واحدٍ، وَإِنِ اختلفَ أصلاهما؛ لأنَّ كُلَّ واحدٍ منهما إِنَّما هو الإبانَةُ عن المعنَىٰ، والإظهارُ لَهُ» اهـ.

وأزيدُكَ إيضاحًا أنَّ الفصاحةَ تتضمَّنُ اللَّفظَ دُونَ المعْنَىٰ، والبلاغةَ تتناولُ المعْنَىٰ، الا ترَىٰ أنَّ الببَّغاءَ يُسَمَّىٰ فَصيحًا، ولا يُسَمَّىٰ بَليغًا؛ إِذْ هُوَ مُقيمُ الحُرُوفِ، وَلَيْسَ لَهَا قَصْدٌ إِلَىٰ المعْنَىٰ الَّذي يُؤَدِّيه، وقد =

وَاعْلَمْ – أَخِي – أَنَّ مَا عَقَدَ أَئِمَّةُ الْبَيَانِ الْفُصُولَ، ولا بَوَّبُوا الأَبْوَابَ إِلاَّ بُغْيَةَ أَنْ يُوقِفُوا الْمُسْتَرْشِدَ عَلَىٰ تَحْقِيقَاتٍ وَمُلاحَظَاتٍ وَضَوَابِطَ، إِذَا رُوعِيَتْ فِي خِطَابِهِ أَوْ كِتَابِهِ، بَلَغَتِ الحَدَّ المَطْلُوبَ مِنْ سُهُولَةِ الْفَهْمِ، وَإِيجَادِ الأَثَرِ المَقْصُودِ فِي نَفْسِ السَّامِعِ، وَاتَّصَفَتْ مِنْ ثَمَّ بِصِفَةِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلاغَةِ[١].

وَاعْلَمْ – أَخِي – أَنَّ إِلْمَامَكَ بِعُلُومِ الْبَلاغَةِ يُحَقِّقُ لَكَ هَدَفًا، لَمْ تَكُنْ تَطْمَحُ إِلَيْهِ نَفْسُكَ مِنْ تَذَوُّقِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَمَعْرِفَةِ أَسْرَارِ هَذِهِ الْمُعْجِزَةِ الخَالِدَةِ، وَتَذَوُّقِ سُنَّةِ مَنْ أُوتِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَكَانَ أَفْصَحَ مَنْ نَطَقَ بِالضَّادِ، مَعَ التَّمَيُّزِ بَيْنَ الْفَصِيحِ وَالأَفْصَحِ، وَالْبَلِيغِ وَالأَبْلَغِ مِنَ الْكَلامِ.

وَمِنْ دُرَرِ أَبِي هِلالٍ الْعَسْكَرِيِّ[٢] قَوْلُهُ: «إِنَّ صَاحِبَ الْعَرَبِيَّةِ إِذَا أَخَلَّ بِطَلَبِهِ وَفَرَّطَ[٣] فِي الْتِمَاسِهِ، فَفَاتَهُ فَضِيلَتُهُ، وَعَلِقَتْ بِهِ رَذِيلَةُ فَوْتِهِ – عَفَا[٤] عَلَىٰ جَمِيعِ مَحَاسِنِهِ، وَعَمِيَ[٥] عَلَىٰ سَائِرِ فَضَائِلِهِ؛ لأَنَّهُ إِذَا لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ كَلامٍ جَيِّدٍ

= يجوزُ مَعَ هَذَا أَنْ يُسَمَّىٰ الكلامُ الواحدُ فَصِيحًا بَلِيغًا، إِذَا كَانَ وَاضِحَ المَعْنَىٰ، سَهْلَ اللَّفْظِ، جَيِّدَ السَّبْكِ، غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ فَجٌّ (الفَجُّ – بالْكَسْرِ –: ما لَمْ يَنْضُجْ)، ولا مُتَكَلَّفٍ وَخْمٍ (أَيْ: ثَقِيلٍ)، ولا يَمْنَعُهُ مِنْ أَحَدِ الاسْمَيْنِ شَيْءٌ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ إِيضَاحِ المَعْنَىٰ، وَتَقْوِيمِ الحُرُوفِ. وانظُرْ فِي ذَلِكَ «جَوَاهِرَ البَلاغَةِ» (ص٨).

(١) «جواهرُ البلاغة» (ص٩).

(٢) أبو هلالٍ الْعَسْكَرِيُّ المُتَوَفَّىٰ سنة (٣٩٥هـ) إمامٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْبَلاغَةِ، وهُوَ – أَيْضًا – مُعْتَزِلِيٌّ؛ فَقَدِ اسْتَهَلَّ كِتَابَهُ «الصِّنَاعَتَيْنِ» (ص٢) بِقَوْلِهِ: «فَيَنْبَغِي مِنْ هَذِهِ الجِهَةِ أَنْ يُقَدَّمَ اقْتِبَاسُ هذا العِلْمِ عَلَىٰ سَائِرِ الْعُلُومِ بَعْدَ تَوْحِيدِ اللهِ – تَعَالَىٰ –، وَمَعْرِفَةِ عَدْلِهِ، والتَّصْدِيقِ بِوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ..» فَهَذِهِ ثَلاثَةٌ مِنْ أُصُولِ الْمُعْتَزِلَةِ. وقَدْ وَقَعَ فِي التَّأْوِيلِ كَمَا فِي كِتَابِهِ (ص٣٣٧)، ومَعَ أَنَّ المَآخِذَ العقيديَّةَ عَلَيْهِ أَقَلُّ مِنْ غَيْرِهِ، لَكِنْ لابُدَّ مِنَ التَّنْبِيهِ إِلَيْهَا. انظر «بَلاغَةَ أَهْلِ السُّنَّةِ» (ص٤٠) بتَصَرُّفٍ.

(٣) فَرَّطَ: قَصَّرَ.

(٤) عَفَا: دَرَسَ وانْمَحَىٰ، وبَابُهُ عَدَا، وَسَمَا، وَعَفَاءُ – أَيْضًا بِالْفَتْحِ والمَدِّ –.

(٥) عَمِيَ: خَفِيَ وَالْتَبَسَ، وبَابُهُ: صَدِيَ.

وَكَلامٍ رَدِيءٍ، وَلَفْظٍ حَسَنٍ وَآخَرَ قَبِيحٍ، وَشِعْرٍ نَادِرٍ وَآخَرَ بَارِدٍ - بَانَ جَهْلُهُ، وَظَهَرَ نَقْصُهُ وَهُوَ - أَيْضًا - إِذَا أَرَادَ أَنْ يَصْنَعَ قَصِيدَةً، أَوْ يُنْشِئَ رِسَالَةً - وَقَدْ فَاتَهُ هَذَا الْعِلْمُ - مَزَجَ الصَّفْوَ بِالْكَدَرِ، وَاسْتَعْمَلَ الْوَحْشِيَّ الْعَكِرَ[٦]، فَجَعَلَ نَفْسَهُ مَهْزَأَةً لِلْجَاهِلِ، وَعِبْرَةً لِلْعَاقِلِ... وَإِذَا أَرَادَ - أَيْضًا - تَصْنِيفَ كَلامٍ مَنْثُورٍ، أَوْ تَأْلِيفَ شِعْرٍ مَنْظُومٍ، وَتَخَطَّىٰ هَذَا الْعِلْمَ - سَاءَ اخْتِيَارُهُ لَهُ، وَقَبُحَتْ آثَارُهُ فِيهِ، فَأَخَذَ الْمَرْذُولَ، وَتَرَكَ الْجَيِّدَ الْمَقْبُولَ، فَدَلَّ عَلَىٰ قُصُورِ فَهْمِهِ، وَتَأَخُّرِ مَعْرِفَتِهِ وَعِلْمِهِ»[٧].

---

(٦) يُقَالُ: عَكِرَ الشَّيْءُ - مِنْ بَابِ فَرِحَ - فَهُوَ عَكِرٌ: إِذَا لَمْ يَرْسَبْ خَاثِرُهُ.

(٧) كِتَابُ «الصِّنَاعَتَيْنِ» (ص٢، ٣).

طُرُقُ تَحْصِيلِ الْبَلاغَة

أَيْ أَخِي، لاشَكَّ أَنَّ المرْءَ بِفِطْرَتِه مُحِبًّا لِكُتُبِ الْبُلَغَاءِ، مُغْرَمًا بِاقْتِنَائِهَا وَقِرَاءَتِهَا، تَقِفُ بِهَا نَفْسُهُ أَمَامَ الْقِطَعِ الأَدَبِيَّةِ وُقُوفَ الْعَاشِقِ الْوَالِهِ، الَّذِي أَضْنَاهُ الْعِشْقُ، بَلْ وَأَرَقَّهُ، لَكِنِ الْهَوَىٰ صَادٌّ، وَالصَّوَارِفُ بِالمرْصَادِ، فَلا يَشْغَلْكَ عَنِ الأَدَبِ شَاغِلٌ، حَتَّىٰ تَتَوَقَّحَ نَفْسُكَ، وَتَكُونَ أَقْدَرَ عَلَىٰ التَّعْبِيرِ الْبَلِيغِ، وَالأُسْلُوبِ السَّاحِرِ(١).

وَحَذَارِ حَذَارِ أَنْ تُقَلِّدَ غَيْرَكَ فِي أُسْلُوبِه، بَلِ انْطَلِقْ عَلَىٰ سَجِيَّتِكَ، مُتَخَيِّلاً أَنَّ مَنْ تُخَاطِبُهُ أَوْ تَكْتُبُ إِلَيْهِ مَاثِلٌ أَمَامَكَ تُنَاجِيهِ؛ حَتَّىٰ يَنْسَابَ كَلامُكَ إِلَىٰ قَلْبِهِ كَالسَّيْلِ إِلَىٰ الحُدُورَةِ.

وَمَتَىٰ حَاكَيْتَ أُسْلُوبَ غَيْرِكَ فِي خِطَابِكَ، كَانَ كَلامُكَ جَافًّا بَارِدًا مُهَلْهَلاً، لَيْسَتْ لَهُ مُسْكَةٌ وَلا قِوَامٌ(٢).

بَلْ يَجِبُ أَنْ تَسْطَعَ شَخْصِيَّتُكَ المُسْتَقِلَّةُ عَلَىٰ الْوَرَقِ سُطُوعَ الشَّمْسِ فِي رَابِعَةِ

---

(١) مِنْ طَرِيفِ مَا يُذْكَرُ أَنَّ أَبَا هِلالٍ العَسْكَرِيَّ - رَحِمَهُ اللهُ - قَالَ فِي كِتَابِهِ «الحَثّ عَلَىٰ طَلَبِ الْعِلْمِ وَالاجْتِهَادِ فِي جَمْعِهِ» (ص٧٢): «حُكِيَ لِي عَنْ بَعْضِ المشَايِخِ أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ فِي بَعْضِ قُرَىٰ النَّبَطِ فَتًىٰ فَصِيحَ اللَّهْجَةِ، حَسَنَ الْبَيَانِ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ سَبَبِ فَصَاحَتِهِ مَعَ لُكْنَةِ أَهْلِ جِلْدَتِهِ، فَقَالَ: كُنْتُ أَعْمِدُ فِي كُلِّ يَوْمٍ إِلَىٰ خَمْسِينَ وَرَقَةٍ مِنْ كُتُبِ الْجَاحِظِ، فَأَرْفَعُ بِهَا صَوْتِي فِي قِرَاءَتِهَا، فَمَا مَرَّ بِي إِلاَّ زَمَانٌ، حَتَّىٰ صِرْتُ إِلَىٰ مَا تَرَىٰ».

(٢) لَكِنْ هَذَا لا يَمْنَعُ أن تُضَمِّنَ كَلامَكَ نَثْرًا، أَوْ شِعْرًا، أو مِثَالاً، تَجْعَلُهُ بَيْنَ قَوْسَيْنِ كَدَلِيلٍ عَلَىٰ أَنَّهُ مُقْتَبَسٌ مِنْ غَيْرِكَ، مَعَ ذِكْرِ المَصْدَرِ إِنْ وجِدَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ كَلامَكَ وُضُوحًا وَإِشْرَاقًا، وَقَدْ قِيلَ قَدِيمًا: «اخْتِيَارُ المرْءِ قِطْعَةٌ مِنْ عَقْلِهِ يَدُلُّ عَلَىٰ تَخَلُّقِهِ وَفَضْلِهِ».

النَّهارِ، وَكَأَنَّكَ تَبْعَثُ لِمَنْ تَكْتُبَ لَهُ صُورَةً حَقِيقِيَّةً لَكَ لا لِغَيْرِكَ[١]، وَهُنَا يَكْمُنُ الإِبْدَاعُ، هُنَا يَكْمُنُ الإِبْدَاعُ![٢].

(١) قَدْ تَقْرَأ كَلامًا لابن الْقَيِّم، أَو ابْنِ تَيْمِيَّةَ، أَوْ لِلْجَاحِظِ، أو لِغَيْرِهِمْ فِي كِتَابٍ دُونَ أَنْ يَذْكُرَ الْمُؤَلِّفُ لِمَنْ هَذَا الْكَلام، لَكِنَّكَ تَلْمَحُ شَخْصِيَّةَ أيٍّ مِنْهُمْ مِنْ خِلالِ أُسْلُوبِه، أَلا يَدُلُّ عَلىٰ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ لَهُ أُسْلُوبُهُ الْمُمَيَّزُ؟، فَلا تَقْعُدْ بِكَ هِمَّتُكَ عَنْ طَلَبِ الْمَعَالِي، أَوْ تَرْضَىٰ بِالدُّونِ.

(٢) قَدْ ذَكَرْتُ فِي الصَّفْحَةِ السَّابِقَةِ ضَرْبًا مِنْ ضُرُوبِ تَحْصِيلِ الْبَلاغَةِ، ومِنْهَا كَثْرَةُ الْقِرَاءَةِ فِي كُتُبِ الأَدَبِ فَجَدِّدْ بِهِ عَهْدًا.

عُلُومُ الْبَلاغَةِ

عُلُومُ الْبَلاغَةِ ثَلاثَةٌ، هِيَ:

المَعَانِي، ثُمَّ الْبَيَان، ثُمَّ الْبَدِيع.

فَعِلْمُ المَعَانِي: هُوَ عِلْمٌ تُعْرَفُ بِهِ مُطَابَقَةُ الْكَلامِ لِحَالِ السَّامِعِينَ(١)، وَالمَوَاطِنُ الَّتِي يُقَالُ فِيهَا، بِمَعْنَىٰ أَنْ يُخَاطِبَ كُلَّ إِنْسَانٍ عَلَىٰ قَدْرِ اسْتِعْدَادِهِ فِي الْفَهْمِ، وَنَصِيبِهِ مِنَ الْعِلْمِ(٢).

---

(١) يَكُونُ مُطَابَقًا لِلْحَالِ حَيْثُ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ، وَالحَذْفِ وَالذِّكْرِ، وَالْفَصْلِ وَالْوَصْلِ، وَالتَّعْرِيفِ وَالتَّنْكِيرِ، وَالْقَصْرِ وَالإِيجَازِ وَالإِطْنَابِ وَالتَّأْكِيدِ.

(٢) الأَدِيبُ - حقًّا - مَنْ خَاطَبَ كُلَّ إِنْسَانٍ عَلَىٰ قَدْرِ اسْتِعْدَادِهِ فِي الْفَهْمِ، فَلِكُلِّ مَقَامٍ مَاقَال، وَمِنْ طَرِيفِ مَا يُذْكَرُ أَنَّ بَعْضَهُمْ قَالَ لِبَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ: إِنَّكَ لَتَجِيءُ بِالشَّيْءِ الْهَجِينِ الْمُتَفَاوِتِ!، قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟. قَالَ: بَيْنَمَا تُثِيرُ النَّقْعَ، وَتَخْلَعُ الْقُلُوبَ بِقَوْلِكَ:

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ، أَوْ تُمْطِرُ الدَّمَا
إِذا مَا أَعَرْنَا سَيِّداً مِنْ قَبِيلَةٍ ذُرَا مِنْبَرٍ، صَلَّىٰ عَلَيْنَا وَسَلَّمَا

نَرَاكَ تَقُولُ:

رَبَابَةُ رَبَّةُ الْبَيْتِ تَصُبُّ الخَلَّ فِي الزَّيْتِ
لَهَا عَشْرُ دَجَاجَاتٍ وَدِيكٌ حَسَنُ الصَّوْتِ

فَقَالَ بَشَّارٌ: لِكُلٍّ وَجْهٌ وَمَوْضِعٌ؛ فَالقَوْلُ الأَوَّلُ جِدٌّ، وَالثَّانِي قُلْتُهُ فِي رَبَابَةَ جَارِيَتِي، وأَنَا لا آكُلُ الْبَيْضَ مِنَ السُّوقِ، وَرَبَابَةُ لَهَا عَشْرُ دَجَاجَاتٍ وَدِيكٌ، فَهِيَ تَجْمَعُ لِيَ الْبَيْضَ، فَهَذَا الْقَوعلُ عِنْدَهَا أَحْسَنُ مِنْ: «قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَىٰ حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ» عِنْدَكَ. انظُرْ «الأَغَانِي» (٣ / ٦٠).

وَيُرْوَىٰ أَنَّ الْكِنْدِيَّ - فَيْلَسُوفُ الْعَرَبِ - رَكِبَ إِلَىٰ أَبِي الْعَبَّاسِ المُبَرِّدِ - شَيْخِ أَهْلِ النَّحْوِ وَالْعَرَبِيَّةِ - وَقَالَ لَهُ: إِنِّي لأَجِدُ فِي كَلامِ الْعَرَبِ حَشْوًا!. فَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ: أَيْنَ وَجَدْتَ ذَلِكَ؟!. فَقَالَ: وَجَدْتُهُمْ يَقُولُونَ: عَبْدُ اللهِ قَائِمٌ، ثُمَّ يَقُولُونَ: إِنَّ عَبْدَ اللهِ قَائِمٌ. ثُمَّ يَقُولُونَ: إِنَّ عَبْدَ اللهِ لَقَائِمٌ. فَالأَلْفَاظُ مُكَرَّرَةٌ، وَالْمَعْنَىٰ وَاحِدٌ. فَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ: بَلْ المَعَانِي مُخْتَلِفَةٌ؛ فَالأَوَّلُ إِخْبَارٌ عَنْ قِيَامِهِ، وَالثَّانِي جَوَابٌ عَنْ سُؤَالٍ، وَالثَّالِثُ رَدٌّ عَلَىٰ مُنْكِرٍ، فَقَدِ اخْتَلَفَتِ الأَلْفَاظُ لاخْتِلافِ الْمَعَانِي. فَسَكَتَ الْكِنْدِيُّ.

وَيُرِيكَ أَنَّ الْكَلامَ لا يَكُونُ بَلِيغًا، حَتَّىٰ يُنَاسِبَ المَقَامَ الَّذِي قِيلَ فِيهِ، وَيُنَاسِبَ حَالَ السَّامِعِ الَّذِي أُلْقِيَ عَلَيْهِ.

فَمَثَلاً حَالُ المُخَاطَبِ الذَّكِيِّ يَقْتَضِي الاخْتِصَارَ، وَحَالُ الْعَنِيدِ أَوِ الْبَلِيدِ يَقْتَضِي التَّطْوِيلَ، كَمَا قِيلَ:

تَكْفِي اللَّبِيبَ إِشَارَةٌ مَرْمُوزَةٌ وَسِوَاهُ يُدْعَىٰ بِالنِّدَاءِ الْعَالِي

وَلِهَذَا لَمَّا خَاطَبَ الْقُرْآنُ الْعَرَبَ أَوْجَزَ، وَلَمَّا خَاطَبَ الْيَهُودَ أَطْنَبَ، فَأَعْجَزَ.

وَمَتَىٰ خَاطَبْنَا النَّاسَ عَلَىٰ قَدْرِ عُقُولِهِمْ، نَكُونُ قَدْ وُفِّقْنَا لِلصَّوَابِ فِي عِلْمِ المَعَانِي. تَرَىٰ الخَيَّاطَ يَأْخُذُ أَوَّلاً قِيَاسَ الجِسْمِ، ثُمَّ يَقُصُّ وَيَخِيطُ عَلَىٰ حَسَبِ الْقِيَاسِ، وَكَذَلِكَ البَنَّاءُ تَسْبِقُهُ عَمَلِيَّةُ الرَّسْمِ الْهَنْدَسِيِّ فِي خَارِطَةٍ صَحِيحَةٍ؛ لِهَذَا قَدَّمْنَا عِلْمَ المَعَانِي فِي الدِّرَاسَةِ عَلَىٰ عِلْمِ الْبَيَانِ، كَمَا يَسْبِقُ الرَّسْمُ الْهَنْدَسِيُّ عَمَلَ الْبُنْيَانِ، وَكَمَا يَسْبِقُ الْقِيَاسُ، وَالرَّسْمُ، وَالْقَصُّ. ثُمَّ...

عِلْمُ البَيَانِ: وَهُوَ عِلْمٌ يَبْحَثُ عَنْ شَكْلِ الأَلْفَاظِ مِنْ حَيْثُ تَبْيِينُهَا لِلْمَعَانِي، هَلْ هِيَ فِي صِيغَةِ الحَقِيقَةِ المُجَرَّدَةِ، أَوِ التَّشْبِيهِ، أَوِ المَجَازِ، أَوِ الْكِنَايَةِ، كَمَا نَرَىٰ شَكْلَ الخِيَاطَةِ، فَنَعْرِفُ نَوْعَهَا مِنْ ثَوْبٍ، أَوْ جُبَّةٍ، أَوْ قَبَاءٍ، أَوْ مِعْطَفٍ. ثُمَّ...

عِلْمُ البَدِيعِ: وَهُوَ عِلْمٌ يَرْجِعُ إِلَىٰ تَحْسِينِ اللَّفْظِ وَتَزْيِينِهِ، كَوَضْعِ أَزْرَارٍ، وَوُرُودٍ وَزَخَارِفَ لِتَزْيِينِ ثَوْبِ الْعَرُوسِ بَعْدَ تَمَامِ خِيَاطَتِهِ، وَكَنُقُوشِ الدِّهَانِ بَعْدَ تَمَامِ الْبُنْيَانِ، وَرُتْبَتُهُ التَّأْخِيرُ عَنِ الجَمِيعِ[1].

(١) انْظُرْ «تَيْسِيرُ الْبَلاغَةِ» لأَحْمَدْ قُلاَّش (ص١٤، ١٥) بِتَصَرُّفٍ يَسِيرٍ.